المحور الثاني

ذاكرة الطفولة الجريحة

طفلات اليوم نساء الغد ما بين التروما والنرجسيّة: تجوال - حَيْرَة واستِبعاد

رجاء مكّي

تمهيد

«ومضات خافتة، استوقفتني الطوابير المنتظرة على محطّات البنزين لثانيةٍ، ثانية عمرها أكثر من 35 سنة. تعود إلى الثمانينيّات وقت الحرب والأزمات، حيث كنتُ أذهب أنا وإخوتي ننتظر في الطابور لوقتٍ طويل أمام فرن الخبز، لحظات تمرّ دائمًا في ذاكرتي، ذكريات مُعتِمة، أشاهدها كما أشاهد أفلام الأبيض والأسود من دون حنين ولا حتّى حِقد».

هذا ما قاله لي «وسام» بتاريخ 2021/5/11 في أثناء بدء الاكتظاظ في أزمتنا الاقتصاديّة. فلجيلِ الحرب امتدادٌ تعابُريّ بين الأجيال Le transgénérationnel يُذكِّرني بمقالة د. «عدنان حبّ الله»، وهو محلِّل العنف الأهليّ كما أُطلِق عليه، عن التحوُّلات الاجتماعيّة وانتقال الموروثات في الهويّة مِن جيلٍ إلى جيل، والذي زَاوَجَ ما بين المُمارَسة العياديّة والتنظير الفلسفيّ والاجتماعيّ. فعدا مُشكلات الحرب والدَّمار أو التأقلُم بين الأقليّات، تظهر موروثاتُ الجيل الثاني والثالث من الجيل الأوَّل، حيث يحمل الجيلُ الأوَّل موروثاتِ الحِقد، كما سبق وشاهدنا ذلك في الضواحي الفرنسيَّة وتحديدًا أحداث Clichy-

sous-Bois[1]؛ فلا وجود لمحايَدة منذ التطوُّر المُتأزِّم، إذ إنّه ليس وليد الساعة بل إنّه نموٌّ مستمرٌّ منذ ثلاثة أجيال، الجيل الثالث عادةً هو الذي ينطق على غير عِلم منه بما هو مكبوت عند الجيل الأوَّل، وهو الذي استعاد مكبوتَ الجيل الأوَّل وأَخرج إلى العلن ما كان في الخفاء. إنَّه عنفٌ متفجِّرٌ في سياقِ كبتٍ متراكِم غالبًا ما يُرجِعُهُ المُراهِق على الأخصِّ على الأرض عنفًا قالوه الآباء في الخفاء. وهنا نطاًل مفهومَيْن أساسيَّيْن:

ـ الدّين كهويّة تُناهِض الهويّة الوطنيّة.

ـ إعادة النظر في المفهوم القوميّ وكيفيّة تقبُّل الآخر الغريب.

وهكذا تُصبِح الحربُ الأهليّة كامنةً في نفسِ كلِّ واحدٍ فينا وتتحكَّم القوميّة النرجسيّة والحنين إلى ماضٍ استعماريٍّ ولّى[2]. ولقد عبّر «أمين معلوف» عن هذه الوضعيَّة بأحسن تعبير حين قال: «البلدُ الذي يُحزِنُني غيابُهُ ويستحوذُ عليّ ليس هو البلد الذي عرفتُه في شبابي، إنّه البلدُ الذي حلِمتُ به والذي لم يرَ النورَ أبدًا»[3].

مشهدٌ أوّليٌّ مرجعيّ

بدأت «فاديا» قصّتَها وبعدما أَخفت مطوَّلًا هذا الحدث من حياتها «نعم أنجبتُ منه ولدًا ولم أعرفْ ولم أكنْ أعلم كيف... أذكر أنَّه على الرّغم مِن حبّي له اغتصبني... أتمنّى عودتي إلى البراءة... هل كانت هذه العلاقة هي علاقة ضدّ الأهل، تعاضدتُ فيها معه على أهلي وأهل الحرب وأهل السلطة؟ الاتِّحاد بوحدة القوَّة مقابل المحاسبة الدّينيّة على اللِّباس والكمّ ما بين «الرُّسْغ والزَّند»، هكذا كانت تقول أمّي.

أهِي جُرأةٌ في المُواجَهة أم عدمها؟ أهو السرّ أم الخوفُ من السرّ؟ الخوفُ من انكشافه؟ وغالبًا ما كان سرّ الرغبة؟ لماذا عشتُ الكذبة وقبلتُ بتعذيب الذات؟ نعم لقد كنتُ مازوشيَّة، لقد ارتبطنا جميعًا بالعذاب وبمصيرٍ موحَّدٍ بين الأخوة «يا بنعيش سَوا ـ يا بنموت سَوا».

«واللَّواتي يعملْن في جمعيّاتٍ مدنيَّةٍ ضدَّ العُنف ربّما خضعْن له ورُهِنَّ لعنفٍ رمزيٍّ».

(1) عدنان حبّ الله، «مكبوت الجيل الأوّل يحلّ في الجيل الثالث ـ قراءة سيكولوجيّة لأحداث الشغب الفرنسيّة» (جريدة **النهار** 2005/11/19) متاح على https://archive.alahednews.com.lb/details.php?id=313113

(2) المرجع نفسه.

(3) Amin Maalouf, *Les désorientés* (Paris: livre de poche, 2012).

«أتمنّى العودةَ إلى البراءة، اخترُت العذابَ، واجهتُ التقاليدَ القاسية وكلّو بْرَجْعو لأمّي على الرّغم مِن حبّي الفائض لها، أمّي شخصٌ يعشق الحزنَ وأمانَ الرغبة القاتلة وصولًا إلى تعذيب الذّات (Auto-Punition)».

«نحن جيل حرب... ما لازم إنسى إنّو جيل حرب! بحرب إسرائيل بتذكَّر اللَّون الأزرق، تجليد الكُتب الأزرق اللّي نحطّوا عالبواب تيسكِّر الضوّ... وما بدّي أنكر حرب بيروت، حروب بيروت، كنّا صغاراً فيها... أثَّرَت كتير...»

وبهالأجواء... الأب موجود بس ما بعرف ليه غيّبت صورة الرجل. ذهبت لهذه العلاقة أعلاه وأعطيته جسدي لاستعطاف صورة الرجل في البطالة وغياب العمل ولم يكُن يعمل ووجدته رجلًا مكان أبي على الرّغم مِن أنّي ساعدتُه ماليًّا».

نذهب في هذه الحالة إلى فكرتيْن أساسيّتيْن:

ـ فكرة الأم الميّتة la notion de la mère morte.

ـ تروما الحرب.

تكمنُ أهمِّيَّة كتاب باحثات الحالي في رصْد التعايُش مع العنف بأشكاله المتنوِّعة، ما جَعَلَ بلادنا مساحةً حيويّة لفهْم العنف عبر الأجيال المُتعاقبة. فالحروب المباشرة ليست الحروب التي تحمل الطابع العسكريّ فحَسْب، بل تلك التي تحمل عدم الانتظام والقلق والعبء على الذاكرة، وبخاصّة لدى الطفلات المتلقِّيَات، ضحايا الحروب. وكون هذا الكتاب يسعى للتعرّف إلى هذه الفئة، فإنّ مساهمتنا ستُركِّز على استخراج القلق المتوارث، والإصغاء إلى مُعاناة الطفلات اللّواتي شكَّلنَ لحظاتٍ من التفكُّك الاجتماعيّ والانفعالِيّ. وقد أَحْبَبْنا في هذا البحث التشارُكيّ أن ندخلَ في محور حكايات العنف لنتشاركَ ولِننقلَ الإصغاءَ، والتدخُّل وأيضًا لوصْفِ الضحيّة وتسليط الضوء على وَجَعٍ مخزَّن.

1) عقدة الأمّ الميّتة: Complexe de la mère morte

وهي استعارة نستعين بها علاجيًّا لفهْم بعض أنواع الانهيارات التي يُمكِن أن تحدثَ في خلال عمليّة النُقلة، وتتجلّى بتحوُّلَ الانهيار عبر تواجدٍ للموضوع الذي امتصّ الحداد... ومِن دون الدخول في تفاصيل التحليل والعلاج، يُمكِن القولُ إنّه موقفٌ متأتٍّ

من أمّ فَقدتْ عزيزًا (طفل أو أحد الأهل أو الأقارب)، والذي ينعكس أو انعكس على علاقاتها بالمحيط وتحديدًا أولادها وهو موقف يأخذه المُحلِّل بعَيْن الاعتبار ويُحلِّله كأداة انعكاسيّة أوَّليّة وكأداة نقلة رمزيّة تُساعده على كشْفِ المكبوت ومضمونِ الحداد أو المأزم، وخصوصًا مع الأطفال أصحاب الشكوى أو مِمَّن يَظهرون في الحالات التي اعتمدتها الدراسة. ذلك أنّ اللّاوعي مبنيٌّ كاللّغة.

يشرح A.Green أنّ تجربة الطفلة أو الطفل هنا هي تجربة العلاقة مع الموضوع مع أمّه وإلى أيِّ حدٍّ كانت قابلة للحياة وللفرح وتتحوَّل فجأة إلى باردة، مطفأة وكأنّها ميّتة؛ وكأنّ الوضعيّة هي وضعيّة تحوُّلٍ في الفراغ وترْكه عرضة للقلق والأوهام، وكيف أنّ فراغ الفكرة يُمكِن أن يتحوَّلَ إلى دفاعاتِ قلقٍ لا تُشجِّع على الاندماج وتُصبح قطيعةً في إطار البُعد البدائيّ أي الأوَّلِيّ وأمام تروما نفسيّة حقيقيّة لا توصف وتبتعد عن طلب الحبِّ والحياة. فما بين نرجسيّة الحياة ونرجسيّة الموت يقبع الضياع، ضياع الموضوع، ويتعرَّض الولد من خلال ذلك إلى مُضاعفاتٍ واضطهاد يستثمرها بشكلٍ مشوَّشٍ ومُلتبِس. وإزاء عدم شعوره بالتمركُز أمام أمّه يحسّ أنّه يعيش مِن دون فائدة. وفي هذه الحالة وكأنّ الأم تفتعل الحربَ مع ولدها[4].

2) تروما الحرب

تترابط العلاقة ما بين الطبّ النفسيّ بأنواعه والحروب بساحاتها؛ وهي علاقة تبادليّة تسعى لمنْعِ الانهيار:

ـ ما بين الجنود.

ـ أو لدَرْسِ الأعراض النفسْجسديّة غير المفسّرة.

فالحرب صدمة بأصواتها وبأدواتها وبنتائجها وبأعراضها (سواء نجم عنها إصابة أم لا). وأوَّل استعمال لكلمة «تروما» كان للتعبير عن الأذى؛ ومع التطوُّر الصناعيّ والتِّقنيّ والعِلميّ بدأ الالتفات إلى الأعراض المَرَضيّة وما ينجم عنها من تجارب سيِّئة وصادمة... بعد الإصابة...

(4) André Green, «La mère morte», in: *Narcissisme de vie, narcissisme de mort* (Paris: Éditions de Minuit, 1980), 222-253.

من جهةٍ أخرى تختفي الحضارة ويختفي التحضُّر في الحروب الأهليّة، ويختفي أيضًا التعديل الغرائزيّ لا بل يلتهب Le remaniement pulsionnel. تؤثِّر الحروب بقوّة ولا تستقدم إلّا الدوافع الحادّة، فلنقلْ إنّها عودة إلى الخليقة منذ بدئها، وهي عودة إلى البدائيّة (والبدء) وهذا ما يراه «فرويد» بأنّه بُعدٌ أوَّلِيٌّ مثبتٌ وغير مقولبٍ اجتماعيّا، إنَّه مشهدٌ أصليٌّ وأساسيٌّ يعود في عصرنا إلى القتل والتابو والسفاح والثنائيّة العاطفيّة[5]. وقد عَرَضَ «فرويد» في هذا السياق الروابط التي تَجمع ما بين الإنسان المتحضِّر والثقافات البدائيّة وتطوُّر الطفل ببُعدٍ أنثرُوبُولوجيّ دقيق على الرّغم مِن تعرُّضه للانتقاد.

وترتبط «التروما الناجمة عن الحروب» بالبُعد النرجسيّ، فيحدث الانشطار حتّى في الأمراض العصابيّة، وهو انشطار الأنا ما بين الأنا القديم والمثال الحربيّ الجديد، فتحصل نواةَ عصابٍ صدماتيّ ناجمٍ عن الحرب Névrose traumatique.

نذكر أنّ هذه النقطة بالذات شكّلت مفصلًا أساسيًّا في النظريّة الفرويديّة لأنّ الحرب لا تُنتِج القلقَ وتُدير النرجسيّة وتفضي إلى تضاعُف التماهيات الأوَّليّة فقط، بل إنّها تُفكِّك القواعد الأخلاقيّة اللّازمة لبقاء المُجتمع وتُدخله في متاهة الأمراض العقليّة المبكّرة والصادمة وتُبقيه في حالةٍ من الطوارئ. فالحربُ في غايتها تأخذ الفرد خارج إطار تلبية احتياجاته، أي خارج الإنتاج وخارج مبدأ اللَّذة، فيتمّ التركيزُ على المانع الصدماتيّ بتأثيرٍ ارتجاعيّ، وتدور التروما حول الحبّ.

* * *

سَيْر العمل والمُقارَبة المنهجيّة

لدى التعرُّض لآفات الحروب وتأثيرها في الأفراد، يدورُ النقاشُ العلميّ حول ما سمّاه Marcel Czermak «الثقافة: سياسات مريضة»[6]؛ وهي مسألة ترتبط بالجدال العلميّ وهويّة العلوم وعناوينها وكونيَّتها، ويَعتبر أنّ العلوم قد انحازت بقراءتها وبمَواقفها إلى جانب واقع Le Maître أو السيِّد الذي يملك القوّة مِن دون أن يملك القدرة، ولا يملك

(5) Sigmund Freud, *Actuelles sur la guerre et la mort*, (Paris: PUF, 1981).

(6) Marcel Czermak, «Au service de Maître», 1987 https://www.monde-diplomatique.fr/1987/09/CZERMAK/40304.

أن يدير رغبته الجامحة المعكوسة من خلال اتّساع رقعة تأثير وسائل التواصل الاجتماعيّ، بحيث لم تُحلّ أيٌّ من المسائل ويستقيل الكلّ من أمام المسؤوليّات. فحتّى «الجامعة» l'université بالمطلق ذهبت في خدمة «السيّد». فأين تكمن الحقائق؟ نعيش في لبنان حقيقة واحدة في الوقت الحالي هي انهيار الاقتصاد، إذ أصبح القلق المكبوت أو المتفلّت ككابوسٍ يرتبط بحقيقة الإنتاج ومُستمَدّ من إرثٍ الحرب وذاكرتها وبربريّتها.

ونحن في هذه الحَيْرة لا بدّ من أن يأخذ التحليل النفسيّ مكانه الصحيح لكنّه وللأسف يُنعت بالاستحالة وبعدم القدرة، وهو موقف ناجم عن الموضوع المرتبط بالفكرة وبالوجع وبالسبب، وكلّها أسباب معرفيّة انتقاليّة ترتبط باستبعاد الذات التي لا يُمكِن أن تُستبعد: الإنسان ـ المتعة ـ التراخي ـ التحوُّلات ـ الشجاعة... وكلّها مشاعر ومواقف ترتبط بالموضوع، موضوع الرغبة، الذي تصيغه الهوامات والذي يتّكىء على حياةٍ اجتماعيّة معاشة.

هل هُم ضحايا مهمَّشون في مُجتمعاتٍ تخلو من المشروعات، على الرّغم من كلّ المشروعات المقدَّمة للمُجتمع الأهليّ ومشروعات الدعم النفسيّ التي لا تتمكّن من استخراج الباطن لأنّ الدعم يختلف عن التحليل؟! وما قيمة استخدامهم من خلال المُجتمع نفسه كضحايا في مُجتمع يبدو واضحًا أنّه يعيش على آفاتٍ أخرى ويمنع نفسَه من المُواجهة الجذريّة أو المُواجهات الأخرى؟

وعليه، فإنَّ اضطرابات الأطفال والمُراهقين هي اضطراباتٌ سلوكيّة لكنّها في الوقت نفسه اضطراباتٌ يُمكِن تسميتها Sans Sujet (مِن دون ذات)، وضياع الذات لا ينفع معه أواليّات بدائيّة كالدَّعم ولا حتّى العلاجات القصيرة وجعْلها من الأولويّات.

نحن إزاء تعقيدات موضوعات علم النفس المرضيّ للولد وللمُراهق، وأمام تداخُلاتٍ في توجُّهات الفهْم وآليّات التدخُّل غير المسؤول أحيانًا، وأمام مُقارباتٍ عَلنيّة وإعلانيّة لا تحفظ السرَّ العلاجيّ ولا تتعلَّق إلّا بسيرورةٍ واحدةٍ لكادر العلاقات التبادليّة، أي بالدّينامية الأُسريّة وبالكادرات الجامِعة (au pluriel) في إطار العلاقة مع الآخر، للتعرُّف إليه وللتمكّن من ترميز عوارضه، وهذا لا يُمكِن أن يتمَّ إلّا من خلال مساحات انتقاليّة وبُعدٍ عاطفيّ محكِيّ يُملي الفراغ غير المسمّى، نحن في إطار معرفة لا بدّ لها من الإيحاء التحليليّ (Inspirations Psychanalytiques).

تكمن الملاحظة العياديّة عبر الإنصات والإصغاء للمُعاناة، لنصلَ إلى «فوضى الضغط» من خلال ذاكرة الحرب والعمليّات العسكريّة المُعاشة والراكدة والمتخيَّلة على أساس أنّها عنفٌ سلبيٌّ؛ يُجبَر الباحثُ أن يمارس دورَه العياديّ حول العنف الجسيم الذي يكسر سيَر الأجيال. وهو بُعدٌ سياسيٌّ أساسيٌّ يرصد الوضعيّات التعابُريّة والكولونياليّة ويُميِّز بين الناشط والعياديّ، ما بين الذاتيّة الاجتماعيّة التي تتمظهر في العلاقة.

وتحدّث فرويد عن نزوة الموت ونزوة التدمير؛ من هنا الملاحظة الأساسيّة الأولى... ومن هنا يُمكِن إطلاقُ مثلٍ مُلِحّ، حيث نُلاحظ من حالات عدم الإنجاب لدى نساء متزوِّجات، هنّ بأغلبهنّ مرتبطات بحمْلٍ غير شرعيّ سابق أثَّر لاحقًا في رغبة الإنجاب، فسيطرتْ نزوةُ الموت وتجلَّت بعدم القدرة على الإنجاب.

نموذج تقديم الحالة

سنُركِّز في عرض كلِّ حالةٍ على:

أ ـ عرض عامّ (الجندر، المستوى العلميّ، الوضع الصحيّ والبيئيّ).

ب ـ ظروف الجلسات وشروط العمل: الطلب والتقنيّات المُستخدَمة، وصف حالة النقلة وتموضُع المُعالِج.

ت ـ تاريخيّة الحالة والوضع العائليّ مفصَّلًا.

ث ـ العوارض.

ج ـ الأواليّات الدفاعيّة.

ح ـ العمل العلاجيّ، ما بين الفكرة والنظريّة وترميز المواقف.

* نلفتُ إلى أنّ العمل العياديّ قد تمّ في أثناء جلساتٍ علاجيّة، والأسماء التي استُخدمت هي أسماء مُستعارة.

دراسة الحالة

هي مستوىً من التحليل متَّبَع يعتمد على تِقنيّاتٍ أخرى وسيطة ومُساعِدة بهدف إرساء قواعد عمل عياديّ علاجيّ في هذا المجال.

ولقد جَمَعَ فريقُ العمل حوالى ثماني حالاتٍ عياديّة خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وتمّت مُتابعتها علاجيًّا في ظِلّ الإقبال على العلاج والتحليل النفسيّ، وتراوحت الأعمار ما بين 3 سنوات و11 سنة، وهي فترة تتعمّق أوديبيًّا وتبقى ضمن مرحلة الكمون لحينِ دخولِها مرحلة المراهقة. إنّه رصيدٌ لفتياتٍ صغيرات حملْن وجه أهلهنَّ وصدماتهم العاطفيّة، فأثَّرت في صورتهنّ عن أنفسهنّ، ليُصبحَ التجوالُ تجوالاً للأفكار الحائرة، فضلاً عن مسألتَيْ الاستبعاد والاضطهاد.

دوفيل (O. Douville) وأطفال الحروب[7]

يَعتبر Douville أنّ الحربَ هي انتقامٌ وهي استبعادٌ للهناء حتّى الهناء المتخيّل، فيسأل الطفل لماذا الحرب وما هي أسبابها لأنّها أسبابٌ غيرُ مفهومةٍ بالنسبة إليه، حيث تبقى الحربُ (وخصوصًا إذا ما كانت حربًا أهليّة) مشروعًا قرابيًّا مبنِيّاً على مَوت الآخر وعلى الانتقام، فحتّى الحُلم هو حُلم صدماتيّ أساسيّ (Standard)؛ إنّها حروبٌ لا تُفبرِك إلّا القلق.

ومن أهمّ ما ركّز عليه (بالإضافة إلى التروما الناجمة عن الحرب) هو ذاك السياق الذي يمشي مع الحرب الأساسيّة، حروب الصغار الذين نستخدمهم إمّا بوصفهم جزءًا من مُمتلكاتنا وإمّا كجزءٍ خلفيّ غير منظَّم لجيشٍ منظَّم. إنّهم الجنود الصغار Les enfants soldats. أطفالٌ أحياء وكأنّهم موتى يعيشون من جرّاء الحرب بوهْمِ الدّفاع أو الاستخدام في سبيل القضيَّة، والقضيَّة مُعاشة لكنْ غير مفهومة بالنسبة إليهم.

إنّها آليّة الارتباط بواقع الحرب وبنتائجها مهما كانت حدّة الالتزام أو الابتعاد:

- الموت.
- التحرُّش الجنسيّ والاغتصاب.
- نقص الغذاء.
- قسوة الحياة اليوميّة.
- مُحاكاة ساخرة وقاسية.

(7) Olivier Douville, «Des mineurs sous la guerre, aujourd'hui, l'exemple de situations africaines,», *les psychologues et les guerres* (Paris: *l'Harmattan*, 2010) http://bibliothèque.uqac.uquebec.ca/index.htm.

ـ سجن قانونيّ وهميّ في مُواجهة حروبٍ قبائليّة لا ذنب لهم فيها.

ـ هُم جنود جُنِّدوا من قِبَلِ جنودٍ أوصياء عليهم.

ـ إضفاءٌ وهميّ للبطولة وللتضحية.

ـ الفوضى في الأنظمة والتراتبيّة.

كلّ هذا ناجمٌ عن تزاوجٍ ما بين العنف وغموضه في ظلِّ مشروع سياسيّ غير هادف، ويتعرَّض من جرّاء ذلك إلى تهميش الأب الفعليّ واستبداله، وإلى تصنيم جسده Fétichisation وتشييئه، وهي كلّها لا تنفع في انبناء زوايا فاعلة في الجسد ولا في الروح، وهي استقطابٌ لمثالٍ في الأنا خاصّ ومُقلقٍ يبتعد عن النصر، لا بل يقترب من السوداويّة إلى حدِّ الهَوَس. أطفال الضَّياع والصَّنميّة لا يُمكِن لهم إلّا أن يكونوا ضحايا.

فرانز فانون F.Fanon ورمزيّة الاستعمار[8]

في حديث Fanon عن التعصُّب الكولونياليّ، رَبَطَ صورة الذّات المُستعمرة بالإمبرياليّة وقدّم صُوَرًا تحليليّة مهمّة يُعيدها التحليل النفسيّ اللّاكاني المعاصر نظرًا لأهمّيّتها. فالخطاب الكولونياليّ هو خطاب أيديولوجيّ يحمل بداخله صُوَرَ الحرب والعنف ويُعيد ذلك إلى ما أسماه هَذيان التملُّك (Délire de possession). وهذا ما يضع الناشِئة على الأخصّ أمام عدم فرصة التفكير وإعادة الإنتاج إلّا بشكلٍ أوّليّ أي طفليّ، بدائيّ، نَزَواتيّ، لا يخرج من إطار ردّات الفعل؛ وهذا ما يترك في النفوس ليس الفعل العنفيّ فحسب، بل يترك توافُقَ ثنائيّةٍ مضاعفة كالاغتراب عن الذات وعن الموضوع في الوقت نفسه، ويضعنا في مواقف بوليسيّة للجهوزيّة، وهذا ما طرحناه مع Douville في مفهوم «الجنديّ الصغير».

وهنا ستكمن أيضًا نظرتنا إلى التمييز واستباحة الذات بالحِقد ونكران «الأنْسَنَة» الداخليّة وتبدو الشخصيّة أو اللّاشخصنة Dépersonnalisation، من دون نسيان ثقافتنا الداخليّة وهي بدورها أوّليّة أيضًا.

(8) فرانز فانون، **معذّبو الأرض** (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، مكتبة نور، 1925).

إنّ الاستعمارَ يُناجي الحُلم واللّهث وراء... والقبض على... وبشكلٍ أساسيّ الانخراط في الحروب التي يُمكِن أن تقوّض دعائم الذّات وصورة الجسد وعدم الحمية من الانهيارات الذهانيّة الحادّة.

وهذا ما يضعنا أيضًا أمام مُواجَهةٍ مع ما نسمّيه L'indigène أو الأصليّ ويستعدّ العارض للظهور Le symptôme؛ فما بين التروما والعارض يتذبذب الإرثُ الثقافيّ ويتمحور في أسطورةٍ عائليّة تحتاج إلى قراءاتٍ عدّة للرغبة غير «المُنجلية».

عرض الحالات[9]

الحالة رقم (1): اللاّوعي الأنثويّ والحرب الأهليّة... الأبّ القاتل[10]

- **تقديم الحالة**

«نور» اِمرأة تعيش دومًا تحت وطأة أحمال طفولتها، فهي ثمرة زواج مُختلَط نتيجة الحراك الديمغرافيّ والطائفيّ؛ الأب عسكريّ، هاجَرَ إلى بيروت بسبب الحرب الإسرائيليّة؛ واستُبعدَ عن أرضه ليجدَ نفسَه ناطورًا لبناية في بيروت حيث التقى زوجته «البيروتيّة». لم تُكمِلْ «نور» دراستها الجامعيّة وتزوّجت في عمر السابعة والعشرين، أجهضت مرّتَين قبل ولادة ابنها.

- **طلب الاستشارة**

خَضعت «نور» للاستشارة النفسيّة من خلال مؤسّسة تُعنى بالدَّعم النفسيّ. كانت تتناول الأدوية المضادَّة للِاكتِئاب بسبب انفعالها وغضبها المتكرِّر نحو ابنها وحسبما قدّمت: «هي طفلة في امرأة». من هنا استنسابنا لهذه الحالة.

- **تاريخيّة الحالة**

الأب عنيف يضرب زوجته وأطفاله. شارَكَ في الحرب الأهليّة واضطرّ لإرسال أسرته لأشهرٍ إلى قرية الجدّة (لأمّها). لم يشعروا بوجوده في محنتهم، حارب فأهمل دَوره كأب.

(9) راعى عرضُ الحالات وتقديمها مبدأ أخلاقيّات المهنة وقوانينها، كما راعى مبدأ الإشراف Supervision والمُراقَبة Contrôle.

(10) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «رندا البرّاج».

خسر الأب رجله في الحرب وزاد عنفه. تقول «نور» بحزن: «بيّي الذكر عانى من تسلُّط أمّي وحرْصها على إدارة البيت. وعانت أمّي من قسوة بيّي وإهماله»، «بالحرب كانوا يتّكلو على النسوان، بتتعب النسوان وبتولّد ليقولو ابن فلان، وهي كانت اللّي بتحاسب وبتراقب وبتخاف علينا ما نقطع الحدود».

لقد عانت «نور» منذ طفولتها من مَشاهِد الحرب الأهليّة ومن مَشاهِد الأنثى المُناضِلة والمُجاهِدة (صورة أمّها): «خَدَمَتْنا، زَرعتِ الأرض، تعايشَتْ مع الحرب وأصوات المَدافع والصواريخ، ما كانت تخاف و«كانت تقول خلّي يسترجي يقنّص لخلّيه إنتاية».

تقول «نور» في إحدى الجلسات «أنا أُشبِه أمّي، جدّتي؛ خالاتي الأربع وبنات خالاتي أجهضت كلّ واحدة منهنَّ ذكرَيْن؛ نحن نقتل الذكور، منعيش حالات بعضنا، أرحامنا بترفض الصبيان». فذكرت ابنها الذكر الذي أزعجها حضوره.

وتتابعت الصدمات بموت أقاربها، وهي تُعبِّر عنهم بشعورها بفقدانٍ مُتتالٍ ومستمرّ، فقد شهدت على وفاة أحبابها من جرّاء الحرب، جدّتها (لأمّها)، عمّتها، أمّا الحبيب فاستشهد في أرض المعركة. «دايما بتساءل هل مُمكن يموت خيّي أو ابني؟»

- **العوارض**

تعاني «نور» من رعب الحرب والمجهول، فهي عدوانيّة، سريعة الغضب، منطوية على ذاتها، تتناول المهدِّئات وتُسقِط غضبها على زوجها وابنها. تتناقض مشاعرها بين الحبّ والكُره، تتماهى بأنثى العائلة المنصهرة بالوجع والرافضة للذّكر.

- **التحليل**

أثّرت الحرب الأهليّة في لبنان في أدوار والـدَيْ «نور» وغيّرت وظائفهما. فعندما شاركَ الأب في قتال «الغريب» على حدّ قولها، محاولًا حماية وجوده، خسرَ رجله وشعرَ بالانكسار والعجز، فصبّ جام غضبه على العائلة وزاد العنف عنفًا. فقُتل الأب في لاوعي ابنتِه وتحوَّل إلى ضحيّةِ حرب. أمّا أمّها، فاستطاعت استغلال الوضعيّة لتستلِمَ السلطة وتُسيطر على أولادها لإزاحة الأب الغائب وتبقى أسيرة هذه الوضعيّة، فتماهت «نور» مع والدتها (القضيبيّة)، لتتحدّاها وتتبعها في النِّزاع ما بين الرغبة في الاتِّحاد والحاجة إلى التحرُّر.

هذه الصلة التي سَجنت «نور» في رغبات الأمّ، جعلتْها لا تُفارِق رحَمَها ـ فهي الأم القاسية أو الغائبة بحسب A. Green[11] ففقدت على أثرها رغباتها الذاتيّة وتوجَّهت إلى تمنّي الموت لنفسها والشعور بالذنب تجاه والديْها الضحايا.

إنّ تماهي «نور» مع والدتها وإناث العائلة، جَعَلَها تفقد الذكور في رَحَمِها. أجهضتْهم، تمرّدت على رَحَمِها، رمَت القضيبَ مرَّتَيْن خارج جسدها لتلعبَ دَور المُحارِب مِن دون أن تُحارب. هنّ الإناث بمواصفات الذكور، يرغبنَ هواميًّا في القذف ولكنْ أيضًا الإجهاض؛ هنَّ الإناث اللّواتي انتزعنَ قوّة الذكر من الحرب، من حرب البقاء وحرب الإلغاء.

الحالة رقم (2): من الأجداد إلى الأحفاد: لم تَضع الحرب أوزارها[12]

«ياسمين» طفلة لم تبلغ الثالثة من عمرها بعد، وحيدة لوالدَيها الجامعيَّين، العامِلَيْن في قطاع المصارف. هي الحفيدة لجدَّيْن (لأمّها) يتعالجان حتّى الآن من آثار الحرب اللّبنانيّة التي خسَّرتهما مُمتلكاتهما وأصدقاءهما. عاش والدها يتيمًا منذ صغره بعدما فقد والدَيْه في الحرب.

- **طلب الاستشارة وشروط الجلسات**

طلبتِ الأمُّ العلاج لطفلتها عندما بدأت برفض دخول الحمّام وأصبحت تحتفظ بالبراز في الحفاض وترفض خلعَه.

استغربت «ياسمين» الوضعيّة في البداية ومن بعدها انتظمت علاجيًّا؛ كما توصّل الأهل في النهاية إلى القبول نظرًا لحاجتهم إلى المتابعة العلاجيّة، وإلى كيفيّة التعامُل مع الطفلة والتعرُّف إلى مشكلاتهم.

وخلال الجلسات اختارت الطفلة الألعاب التالية:

1 ـ المعجون الأسود، حاولتْ رميه ولصْقه على الحائط. وكأنَّها تُحاول رمي السواد لتُلصقه بمكانٍ بعيد عن مكانها.

(11) André Green مرجع سابق.

(12) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «سعاد علم الدّين».

2 ـ الحيوانات، إذ خبّأتها ما عدا القرد، حيث أخذت تُنظِّف مؤخَّرتَه، وقالت: «هيْكْ صار نضيف». وكأنَّه يُمثِّلها، فهي بحاجة إلى مَن يقبلها ويُساعدها للتخلّص والتنظُّف من البراز: فقد كان القردُ هنا وسيطًا اجتماعيّا.

3 ـ وعند استخدام الـ «puzzle» رتَّبتها بسرعة وبدقّة، من الداكن إلى الأفتح، فكان الاهتمام باللّون الأسود في البداية. وكأنّها تُحاول التعبير عن حاجتها إلى تنظيم الألوان الداكنة وترتيبها للتخلُّص منها.

4 ـ وعندما رسمت، مزّقت الورقة بالقلم وحاولت كسره، وعبّرت بالرفض وبالعدوان.

- **تاريخيّة الحالة**

عادت مشاعر القلق والخوف عند جدَّي «ياسمن» ووالدَيْها لحظة ولادتها؛ فهي كيف ستعيش؟ «ما بدّنا تشوف اللّي شفناه».. هي الطفلة الحُلم التي أتت لتُحقِّق ما لم يستطع الأهل تحقيقه، وهي التعويض عن الخسارة: «بوجودها حسّوا أنّهم ربحوا بعد خساراتهم»، هكذا عبّرت الأم عن لسان الجدّة والجدّ.

عاش الوالدان ظروفًا قاسية إبّان الحرب في لبنان التي دامت لسنواتٍ طويلة، فَقَدَ الأبُ خلالها أهلَه وهو لا يزال طفلًا، وعانى أهلُ الأمّ من صدمات الحرب حيث فَقَدَ الوالدان الذاكرة مُوَقَّتًا ولا يزالان حتّى الآن يتعالجان من الاكتئاب بالعقاقير. فحمل الجميع ثقلَ الحرب وآثارها وما خلّفته من حرمان.

هي الحفيدة الوحيدة، تبقى مع جدَّيْها طوال النهار بسبب عمل الوالدّين، وغالبًا ما تبيت معهما، يخافان عليها ويحاولان حمايتها بالاهتمام الزائد، وكأنّها تتربّى برعايتهما.

- **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

تتحكّم «ياسمين» بالعائلة كلّها ـ كما تقول الأمّ ـ تفرض سلطتها وقانونها الخاصّ عبر بكائها. عدوانيّة في سلوكها وتحاول التكسير. تخاف التركَ ويُقلقها الهَجْر. يُسيطر عليها حبُّ التملّك، وامتلاك الأشياء «إذا ما أخدت الغراض اللّي مع غيرها بتعمل crise، ما

حدا بيقدر يهدّيها وبالآخر منمشي معها تتروق». فلا تحبّ التواصل مع الآخرين وكأنّها في كلّ هذا تتماهى بالجدَّيْن المُكتئِبيْن.

- **التَّحليل**

هي الطفلة الأولى والوحيدة للعائلة، وُلدت من رَحَم الحرب، ولم تتمكّن من تكوين الذات الفرديّة والذات الاجتماعيّة. حملتِ الإرث العائليّ الاكتِئابيّ، الناتج عن كلّ ما خلّفته الحرب وتركت آثارها فيه. تشعر بالاضطهاد وعدم الثقة بنفسها ولا تستطيع التواصُل مع الآخرين؛ فاقدة للأمان والحماية، تُخبئ حاجاتها وألعابها خوفًا من فقدانها ليبقى إحساسها بالقدرة على التملُّك. لذلك ينتابها الإحباط إذا لم تُنفَّذ متطلّباتها. كما نُلاحِظ أنّ مآزمها ظهرت في المرحلة الشرجيّة (من خلال التبرُّز والاحتفاظ به) لتُحافِظَ على القدرة الفائقة، لكونها لا تزال غير قادرة على التعبير بالكلام، وعمّا تريده من الأهل والعائلة بشكلٍ عامّ.

لقد امتصَّت «ياسمين» الحالة الاكتِئابيّة من الجدَّيْن اللّذَين عاصرا الحربَ في لبنان لسنين طويلة، وهي تمكث معظم الوقت عندهما، من هنا كان ارتهانها لهذا «الموروث العابر للأجيال»، الموروث الذي لا تفهم عنه شيئًا؛ إلّا أنّها تتصرَّف من خلاله بعدوانيّة لتخفيف هذا القلق والوجع عن نفسها، وعبر التسلُّط وفرْضِ قوانينها لتعويض دَور جدّتها الضائع التي لم تستطع أن تكون أمًّا جيِّدة كفاية لابنتها (أمّها)، وتعويض دَور الجدّة (لوالدها) المتوفّاة، وتعويض دَور جدَّيْها، الأوّل المتوفّي فعليًّا والثاني المتوفّي هواميًّا... لعلّها تستطيع استعادة أدوار العائلة الضائعة، والحفاظ على ما تبقّى منها.

فهل استطاع الأهلُ معرفة ما يجول بداخل الطفلة من صراعاتٍ وحروبٍ مُستنزِفة، على الرّغم من عدم معرفتها بهذه الصراعات والحروب أو معايشتها لها؟ هل استطاعوا الانتباه إلى أنّها فتاة تتربّى في عائلة متوفّاة هواميًّا؟ هل يستطيعون معرفة ما تراه الفتاة في وضعيّة العائلة التي عانت الحرب ولا تزال في حربٍ داخليّة تغلغلت فيها؟ فعلى الرّغم من محاولة الأهل استبعاد موضوع الحرب وآثارها، إلّا أنّ استبعاد الحرب جَعَلَ «ياسمين» بحَيْرَةٍ مع نفسها ومع طفولتها، وباستبعادٍ لدَور أهلها، وبتجوالٍ مع حياة أجدادها.

الحالة رقم (3): بين الحرب والانفجار: العلاقة مع الموضوع[13]

- **تقديم الحالة**

«ميليسّا»، شابّة في الثامنة عشرة من عمرها لكنّ ذكرياتها عالقة في المرحلة العمريّة 5 ـ 11 سنة. هي في الصفّ الثانويّ الثالث، من مستوىً اجتماعيّ اقتصاديّ جيِّد، يعمل الوالد في قَطَر والأمّ ربّة منزل. هي ابنة الأمّ التي عانت الرعب اليوميّ في الحرب، من إحباطٍ وقلقٍ لأكثر من 16 سنة، وجسَّدت بأوجاعها الوجهَ السلبيّ لنتاج هذه الحرب، التي أسهمت في تشكيل شخصيّةٍ مكتئِبة إثر تعرُّضها لكثير من الصدمات، فأَسقطت الأمّ بذلك عدائيّتها ووجعها النفسيّ على ابنتها الوحيدة، كما أدمنتِ الكحول.

- **شروط وإجراءات الجلسات**

طلبتِ الاستشارة للأسباب التالية:

ـ خوف مرتبط بهلع الحرب: «انفجار مرفأ بيروت جَعَلَني أشعر بقلقٍ قاتل، وخوفٍ رهيب».

ـ الرغبة في اكتشاف الذات: «... إنّ حياتي وعلاقاتي معقَّدة جدًّا، وغالبًا ما تكون غريبة».

ـ مشاعر متناقضة: «... عندي مشاعر متناقضة تجاه أمّي، أحبّها وأكرهها في وقت واحد/تارةً أكون إنسانةً مجنونة أعشق الموت، وتارةً أخرى أعشق الحياة والفرح والغناء».

- **الجلسات وإطارها**

لا تزال «ميليسا» قيد العلاج، واكتفينا بذكر الجلسات الأربع كنموذجٍ تفاعليّ معها، نظرًا لأهميّتها.

ـ الجلسة الأولى: رفضت الكلام وطلبت ورقةً وقلمًا، أسقطت عليها وجعها واختصرت من خلالها الأحداث التي مرّت في حياتها حيث سيطر على الجلسة الصمتُ التامّ والدموع التي عبَّرت من خلالها عن وجعها.

(13) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «لينا نحّاس».

ـ الجلسة الثانية: كانت تحليلًا للرسومات وربطها بالأحداث السابقة من الطفولة وحتّى الآن، حيث أشار التحليل إلى وجود معاناة ترْك الأمّ لها، ما جعلَ منها شخصيّة حسّاسة، قلِقة ومزاجيّة.

ـ الجلسة الثالثة: كانت استعادةً للذكريات وأهمّها: مَنظر الجرحى والقتلى في مرفأ بيروت، ذكرى أمّها المريضة التي تعرَّضت لاكتِئابٍ شديد بسبب صدمات الحرب.

ـ الجلسة الرّابعة: كانت تحليلًا لما كَتبته في يوميّاتها من مشاعر. لقد أتت ومعها ورقة دوّنت عليها حوارًا تخيَّلته بينها وبين والدتها، وكان متمحورًا حول عجزها عن تحقيق رغبة أمّها بانتمائها السياسيّ، وعَتَبِها عليها لإدمانها الكحول، وشعورها بالذنب لأنّها لا ترضي والدتها.

- **تاريخيّة الحالة**

أَيقظ انفجارُ مرفأ بيروت الذي حدث بتاريخ 4 آب/أغسطس 2020، صدماتٍ عديدة عانت منها «ميليسّا» منذ عمر 5 سنوات وحتّى الوقت الحالي، ومن هذه الأحداث نذكر:

ـ مَرَض الوالدة: «ابتدأت مأساتي بعمر الخمس سنوات عندما تخلَّت أمّي عنّي بسبب مرضها وتناولِها الأدوية التي جعلتها غائبة عن الحياة. عند عودتي من المدرسة تكون نائمة أو عند الطبيب أو في المشفى».

ـ غياب الأب: «عندما بلغتُ 7 سنوات، لم يتمكّن والدي من قضاء وقتٍ مُمتعٍ معي ولم يقُم بوظيفته كأب، بسبب عمله ورحلاته الدائمة. غالبًا لم تكُن علاقتي به جيِّدة، وهي محصورة بالماديّات».

ـ خلافات الوالدّين: «قبل أن أبلغ التاسعة من عمري، كان والِداي مُنفصلَيْن في المنزل ولا تجمعهما سوى العلاقة الماديّة وتبادُل تُهم التقصير والإهمال والغياب. فعلى الرّغم من كوني الطفلة المدلَّلة، كنتُ حزينة وعصبيّة، وهاجسي الانتقام من مرض أمّي، واستهتار والدي».

ـ مأزم في الدّيناميّة العلائقيّة مع الأمّ: «بعمر 11 سنة انتقلتُ مع أمّي إلى العيش في لبنان، وأبي لا يزال في قطر. أَدمنتْ أمّي، فعشتُ العدائيّة تجاهها، ما جَعلني أترك المنزل

وأنام عند رفيقاتي من دون علمها، أدخِّن السجاير، أكذب.... وفيما أنا أكبر ازداد هذا الشعور حين عجزتُ عن تحقيق رغبة أمّي بانتمائي للجهة السياسيّة التي تؤيِّدها، أكرهها وأكره هَوسَها بالسياسة التي دمّرتها».

- **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

تُعاني «ميليسّا» من تغيُّراتٍ مزاجيّة، وغضبٍ، وصراخ، وبكاء، وعناد، ومُعارَضة، ويأس من الحياة (وجود أفكار انتحاريّة)، كما تُعاني من تعبٍ ومن فقدان الحيويّة في أغلب الأحيان، وفقدان الشهيّة، والتأنيب الذاتيّ، والخوف من أن تصبح مكتئِبة كوالدتها، فضلاً عن اضطرابٍ في النوم، وفشلٍ دراسيّ، وإدمان على السجائر...

- **التحليل**

تُشير الحالة، إلى ارتباطٍ وثيقٍ بعُصاب الحرب، وتأثيره على نموّ الطفل، الذي يُمهِّد الطريق لحالةٍ نفسيّة هشَّة.

لقد خزّنت «ميليسّا» في نفسها أشياءً كثيرة من طفولتها، والآن انفجر الموقف معها في أثناء انفجار مرفأ بيروت، عبر استذكار الماضي الذي جَعَلَها تشعر بأزمة افتقاد الأمان الداخليّ المُرتبط بمرض والدتها منذ صغرها، والذي كان له التأثير المباشر على النموّ العلائقيّ الطبيعيّ بينهما. وهذا ما عَرقل اهتمامَ أمّها بها وأَبعدها عنها لتتعطّل عمليّة الإشباع العاطفيّ.

وهكذا عادت الصدمة الهلعيّة في مجال المركّب الأموميّ، الذي ينتظر الحادث المفجِّر المباشر، والذي يؤدّي إلى بناء العارض على قاعدة اضطراب العلاقة مع الأمّ التي تُعاش كفطامٍ مبكر.

لقد استعادت «ميليسّا» حالةَ الهلع والقلق خوفًا من تكرار مسلسل الحرب والتفجيرات من جديد؛ وهذا ما تمّ نقله عبر الأمّ من مشاهد وأحداث عاصَرَتْها وأوصَلَتْها إلى حالة الاكتِئاب، والإدمان. فكانت لابنتها القدوة والغائبة؛ وهذا ما أَجَّجَ الصراعَ بينهما، ونمّى التباعُد في أثناء مراحل عمرها.

إنّ فقدانها للحبّ الذي ترافق مع صورة الأمّ الضائعة وشعورها بالفراغ العاطفيّ le vide affectif، وغياب التعلُّق الآمِن، وصور طفولتها المصاحبة للصراعات

العائليّة..هذه الأمور كلّها قادتها في ما بعد إلى الضياع والمزاجيّة من خلال نظرتها التشاؤميّة ومشاعر الدونيّة وعدم التقدير لنفسها. وقد عزّزَ هذا كلّه لديها مشاعر الغيرة والانتقام والكراهيّة لوالدتها، وما يستتبع ذلك من اضطرابٍ وتوتُّرٍ على الصعيد العلائقيّ.

كما استعادت رغبة الأمّ واسقاطاتها السياسيّة، التي شكلّت لديها عاملًا مساعدًا في تشكيل اللّاتكيُّف والشعور بالإحباط واللّاانتماء، وظهرت المشكلة حين عجزتِ الابنة عن تحقيق رغبات الأمّ وطموحاتها في الانتماء، فشعرت بعدم القدرة على المُواجَهة لتتشكَّل عندها مشاعر الذنب، والقلق، ولتتماهى بسلوك والدتها الانحرافيّ. كما لعبَ غياب سلطة الأب ودَوره على تعزيز هذا السلوك.

وهذا دليل على أنّ اضطراب العلاقة بالأمّ أَسهم في بناء شخصيّة (بنية الأنا) مَشعورة ما بين التأنيب والهجوم والاهتياج، فيكون المؤنِّب هو نفسه المُهتاج: أنا «حزينة ومهتاجة وجشعة» حيث الأنا الهزليّة والمتداعية بحسب د.عبّاس مكّي في «متاهات النَّفس وضوابط علاجها»[14].

الحالة رقم (4): انتقال صدمة الحرب والمآزم وتكرارها عبر الأجيال[15]

- **تقديم الحالة**

تبلغ «ليا» من العمر 11 عامًا، تعيش بعد طلاق والدَيْها مع أمّها وأختها التي تكبرها بثلاث سنوات وجدَّيها لأمّها. عانت الأمّ بسبب ظروف الحرب وفقدتِ الكثير من أحلامها وطموحاتها ومنها إكمال تعلّمها. أمّا الأب فغائب عنهم. وعلى الرّغم مِن المستوى الاجتماعيّ الميسور، ترى «ليا» أنّها أقلُّ من غيرها. وعلى الرّغم من وصولها إلى المرحلة المدرسيّة المتوسِّطة فهي ترفض العِلم.

(14) عبّاس محمود مكّي، **متاهات النفس وضوابط علاجها** (بيروت: مجد المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، 2013)، ص 467.

(15) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «إيليان نحّات».

- **ظروف الجلسات وشروط العمل**

ـ طلب الاستشارة

تمّ طلب الاستشارة من الوالدة بسبب معاناة «ليا» من أزماتٍ ضيقٍ في التنفّس، تصل إلى عدم القدرة على التنفّس، وخصوصًا في فترة الامتحانات. كما تذهب إلى تصرّفات عدوانيّة، ولاسيّما في العلاقة مع الأخت والأمّ؛ فهي تطلب وتعبِّر عن الحاجة إلى مَنْ يسمعها ويتحاور معها ويفهمها، وهذا ما لم تستطع الحصول عليه ضمن الجوّ العائليّ الذي تعيش فيه، كما تُعبِّر عن خوفها من تخلّي العائلة عنها بشكلٍ عامّ. هذا فضلاً عن التأخُّر الدراسيّ الذي تعاني منه مؤخَّرًا ممّا يجعلها تحت ضغط التأنيب الدائم.

ـ التقنيّات المُستخدَمة

تابعت «ليا» جلساتها بشكلٍ مستمرٍّ واستطاعت التكلّم على وضعها ومشكلاتها ومآزمها. جرى العمل على استرجاع التاريخ العائليّ من خلال صُورها وسرْد القصص وتنظيمها، إلّا أنّها لم تستطع الرسم وبدأت بردّاتِ فعلٍ سلبيّة.

ـ وصف حالة النقلة وتموضُع المُعالج

أَبدت الفتاة ردّات أفعال عنفيّة (كلاميّة وسلوكيّة) على المُعالِجة وكأنّها استبدلتها بالأمّ والأخت، وكأنّها استبدلت مفهوم الحرب بحربٍ أخرى على مَن يقبلها ومَن لا يقبلها. فدخلتْ بالمزاجيّة بين قبول العلاج ورفْضه ـ بين النقلة الإيجابيّة والسلبيّة ـ فكانت حينًا تُظهِر التجاوبَ والقبولَ والقدرةَ على التعبير، وحينًا آخر تُظهِر العدوانَ والرفضَ في الكلام والتخلّف عن المواعيد بسبب المرض أو النسيان. وكانت المُعالِجة تدعم السلوكيّات الإيجابيّة وتعمل على تخفيف حدّة السلوكيّات السلبيّة، من خلال إبداء التفهُّم وفرْضِ قانون العلاج.

- **تاريخيّة الحالة**

وُلدت «ليا» من أمٍّ اكتِئابيّة، وبَقيت في الحاضنة لفترةٍ ليست بقليلة بسبب ظروف الولادة الصعبة، فتعرّفت إلى الحياة من خلال الحاضنة. هي الصغرى التي وُلدت من رَحِم أحزانٍ وخلافاتٍ عائليّة، ولكنْ على الرّغم مِن ذلك يُمنع إظهار الحزن والشعور به في العائلة.

وظَهرت علاقة الفتاة مع العائلة على الشكل التالي:

• العلاقة مع الأمّ: أمّ ضعيفة لا تستطيع فرْضَ قوانينها ولا إظهار الحبّ والحنان ولا تقديم العاطفة، إلّا أنّ علاقة الفتاة بأمّها هي علاقة ذوبانيّة لدرجة عدم القدرة عن التخلّي عنها أو مُفارقتها.

• العلاقة مع الأب: أبٌ غائبٌ لا تواصل بينهما.

• العلاقة مع الجدّ: يتبادلان الأفكار والأحاديث إلّا أنّها تقول: «جِدّي مش جَدِّي» لإظهار عدم جديّته وهزله في الحوار معها، وكأنّ الحوار في الأساس ليس حوارًا، والتفاهُم ليس تفاهمًا.

• العلاقة مع الجدّة: هي المُتعاونة والمتفهّمة والمُساعِدة والحاضنة ولكنْ مِن دون عاطفة، ولم تستطع تعويض الحنان المفقود من الوالدة التي لم تحصل على الحنان بدورها بسبب الحرب.

• العلاقة مع الأخت: أختها الكبرى حصلتْ على ما لم تحصل عليه من الأبوَين كما تقول: «عَطْيوها اللّي ما عطيوني هوي»، يُسيطر النِّزاع والغيرة على المواقف التي تجمعهما معًا، وبخاصّة المواقف التي يكون باطنها ما له علاقة بالأمّ.

• العلاقة مع الأصدقاء: من الصعب التعرُّف إلى الأصدقاء، وهي تقريبًا لم تكوِّن صداقات مع الآخرين ذكورًا كانوا أم إناثًا.

• **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

من خلال ما تقدّم نُلاحِظ أنّ «ليا» تُعاني اضطراباتٍ عديدة كصعوبةٍ في التنفُّس والتعبير، والعدوانيّة تجاه الآخر. لذا تشعر بالوحدة والمزاجيّة والقلق وصعوبة في النوم. هذا إضافةً إلى الوسواس الذي يظهر في الأفكار والنظافة، ما يجعلها تعيش مُعاناة مع نفسها ومع الآخرين. ومن هنا فهي تستخدم الأواليّات الدفاعيّة كالتماهي بالأمّ المتوفّاة هواميًّا والنكوص لتعود الطفلة المدلَّلة.

• **التحليل**

يسمح ما تقدّم لنا بالتكلُّم على الصدمات في محتوى التصوُّرات العائليّة وعلى انتقال الصدمات والمآزم الأموميّة إلى الأولاد وبخاصّة في غياب الأب.

فبسبب ظروف الحرب ووضعيّة التهجير، نقلتِ الأمُّ هذا الحدث الصادم الذي شهدته قبل ولادة ابنتها وأثره إلى رضيعتها التي بقيت في الحاضنة عند الولادة، وكأنّها لا تريد أن تَلِدَها لتبقى محميَّة في رحمها. فتظهر «ليا» كطفلة لم تولَد بعد، أي أنّها لم تنفصل عن أمّها (حالة التبعيّة ـ السلبيّة)، أي لا زالت تعيش في رَحَمِ أمّها وتخضع للموروث الأموميّ، ولم يُؤَدِّ الأبُ دورَ الفاصل.

وبذلك نقلتِ الأمُّ حالتها العاطفيّة، أي الكآبة (نزوة الموت) المرتبطة بماضيها الصادم وعدم قدرتها على التفاعُل مع طفلتها، إلى الطفلة؛ فأصبحت الأخيرة عدوانيّة تُظهِر عدوانيّتها هذه كلّما شعرت بقلق التخلّي عنها، وتختلّ قدرتها على التواصُل مع العائلة. من هنا تحتاج «ليا» إلى إعادة بناء صورة الأمّ للتوقُّف عن بكاء بطنها الذي فقدته في الحرب.

إضافةً إلى ذلك، نُلاحِظ أنّ العائلة تسعى باستمرار لتخْبئة الصدمات (الولادة والحرب والطلاق) لكي تعيش سعيدة. لقد نقلتِ الأمُّ ووالدَاها خشيةَ أثر الصدمة إلى الابنة واعتادوا على تخْبئة هذا السرّ، ولاسيّما على صعيد العواطف والمشاعر. فتشعر الفتاة بأنّها تحت ضغوطٍ لتلبية طلبات العائلة، في ما يتعلّق بنرجسيّة الوالدَين التي تربطها بالحرب.

ولكنْ على الرّغم من ذلك، ما زالت الفتاة تبحث في المُقال واللّامُقال لاكتشاف التاريخ العائليّ (اللّامُقال) والحبّ بغية كسْرِ الجمودِ العاطفيّ، وكشفِ حقيقةِ الطلاق، وفَشَلِ الأمّ في الدراسة، والذكريات المرتبطة بالحرب، ما يجعلها بين تجوال الأفكار الحائرة. كما نُلاحِظ أنّ «اللّامُقال» Non-dit هو سيّد الموقف لإيصال الرسالة الصادمة التي من المُمكِن أن تكون مخفيَّة وتَظهر من خلال الأفكار المُثبتة والمتكرّرة عندها.

غالبًا ما تشعر «ليا» بأنّها لا تُرضي رغبة الأمّ؛ فالرغبة في رغبة الآخر؛ فتعيش الارتهان لها (تكرار الصدمة). تعيش الفتاة صراعًا بين الخوف من الخطر (الحرب) وواجب الطاعة للأهل الذين عانوا الحرب وفقدان الثقة بالنَّفس، وهنا تعود بالزمن إلى طلب الحماية الطفوليّة والأمومة السلبيّة.

كلُّ ذلك يجعل الحالة المدروسة تعيش في هواماتها (وضعيّة الخضوع لآخرٍ من العائلة). فبعض الأعراض التي تأخذ أشكالًا وهميّة، تُضيِّع الإطار المُرتبط بالهويَّة.

الحالة رقم (5): زنا المحارم وعودة المكبوت في زمن الحروب[16]

- **تقديم الحالة**

«آية» في العشرين من عمرها تَستذكر طفولةً قاسية. هي طالبة في العلوم التربويّة. تعيش في أسرة محافظة، من أبٍ قياديّ عسكريّ حزبيّ، يغيب كثيرًا عن أسرته، وأم ربّة منزل تتحمّل عبء غياب زوجها وتقوم بدَوره في البيت وتهتمّ بالأولاد.

طلبت «آية» الاستشارة النفسيّة لمُعاناتها من صدماتٍ عاطفيّة وشعورها بازدواجيّة المشاعر. جالت بين شابَّيْن، هادي زميلها في الجامعة وشادي ابن خالتها الذي أحبّته منذ نعومة أظفارها.

- **تاريخيّة الحالة**

تتذكّر «آية» غياب والدها وانتظارها له بفارغ الصبر لترى حذاءه العسكريّ وتشعر بالأمان وتنام: «آخر فترة صرت حِسّ بعدم الأمان لأنّو بابا بعيد عنّي وصرت عصِّب كتير»، «لمّا يشوفني زعلانة بيعبطني، برتاح، أنا بحاجة دائماً إلى العناق الدافئ والحنان، والتماسّ الجسديّ». «بيّي كان بارّاً بأهله، أمّي كمان». كانت الأمّ متعلِّقة بأهلها إلى أبعد الحدود «ما بعرف أمّي لحالها، صورتها عندي دايمًا مع عَيلتها». وكانت الأمُّ تترك «آية» عند خالتها وتذهب لإكمال دراستها أو لمُمارسة شعائرها الدّينيّة. توفِّيت الخالة باكرًا ولم تستطعْ الفتاة التعبير عن حزنها. وعبّرت عن رفضها مُمارسة الشعائر الدّينيّة «أنا لا أرفض الحجاب لكنْ مش راضية عن الشعائر الدّينيّة، بِدور براسي ميِّة سؤال حول فكرة الله والخلق، أشعر بأنّي مكبوتة».

تتذكّر «آية» حرب تمّوز/يوليو 2006، كان عمرها عشر سنوات. حينها عاشت مُعاناة التهجير والتجوال الموجِعة والموحِشة. تحمّلت النساءُ المسؤوليّات بغياب الرجال، من تأمين الخُبز ونقْل المياه والاهتمام بالأطفال... فالابتعاد عن الأرض والابتعاد عن الأب، وفكرة وجود الرجال في أرض المعركة.. كلّ ذلك جَعَلَ «آية» تشعر بانعدام الأمان. «كانو النسوان يْقولو يا منعيش كلّنا سوا يا منموت كلّنا سوا، نحنا كولاد كنّا نخاف لمّا نسمع الطيران والقصف، نتخبّى وبسّ يهدى الوضع نرجع نلعب سوا». لقد سَكَنَ الكثير من

(16) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «رندا البرّاج».

أفراد العائلة في شقّةٍ واحدة، قُسِّمَت الغُرف «بالشراشف»، استحمَّ الأطفالُ مع بعضهم «وكنّا ننام حدّ بعض». هذا التجمُّع العائليّ دَعَمَ «آية» على تخطّي مصاعب الحرب إلّا أنّه عرَّضها للتحرُّش من قِبَلِ ابنَي خالتَيْها الكبرى والصغرى، وكلّ ذلك باسم الحبّ.

- **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

نُلاحِظ أنّ «آية» تُعاني من ازدواجيّةٍ في المشاعر بين الحبّ والجنس. فهي تشعر بتدنّي قيمتها الذاتيّة، وبالانطوائيّة والعجز وعدم القدرة على حماية الذات، فضلاً عن شعورها بالنقص والعجز والذنب، ومَشاعر الكبت.

- **التحليل**

حاولَت «آية» مُكافَحة الاغتراب الذي شَعرت به بسبب الحرب القاسية التي تُشبه قساوة ترْك أمّها لها عند الخالة، وغربة أبيها للتواجُد في أرض المعركة، إلّا أنّها وجدتْ نفسَها ضحيّة التحرُّش الجنسيّ من قِبَلِ أبناء خالاتها. لقد غابت السلطة الأبويّة عن الأماكن التي احتضنتهم في الحرب، وتحوّلت السلطة الأموميّة إلى انحرافٍ في قانون الأب، ما سمحَ بالتقارُب والتماسّ بين أبناء عائلة الأمّ. لم يستطع القانون السائد حماية الفتاة في غربتها فغرقت في مشاعر الاغتراب. وعندما حاولت الهروب من هذه المشاعر وفكّ الارتباط بهذا القانون، لم تستطع سوى التثبّت على موضوع اللّذة وتوجَّهت إلى النزوة التدميريّة.

لذا لم يكُن الحجاب حاجزًا في وجه غرائزها الجنسيّة بل كان غطاءً وحمايةً لِلذّةٍ مكبوتة واعترافًا وقبولًا من بيئتها. بينما في مُمارسة الشعائر الدّينيّة تخاف من الرقيب والمُحاسب على لذّتها لتغرق في مشاعر الذنب والخجل.

حَلَّ الصِبية بدائل عن اللَّذة تجاه الأب الغائب. إضافةً إلى أنّ «الخالة المحبوبة» كانت بديلة أمّها وكانت بديلاً لأمّهات الصبيَّين المتحرِّشَيْن. لقد ظهرت الرغبة الجنسيّة عند هؤلاء الصبية المتحرِّشين في لمس الأمّ والخالة، وهي الرغبة المكبوتة في الطفولة بسبب الحظر الاجتماعيّ والدّينيّ فتفلّتت مع ابنة الخالة. وهذا ما ذكره فرويد في أنّ لذّة

اللّمس تبقى دائمة ومستمرّة ولاشعوريّة، لأنّ المكبوت لا يموت، والرغبة تنتقل باستمرار لتفلت من الحظر[17].

إنّ أيّ رابط أسريّ يأخذ الشكل الثلاثيّ، الأبّ والأمّ والطفل، هو في عائلات سفاح المحارم رابطٌ يُستبعد فيه الطرف الثالث (الأب) أو يَستبعد هو نفسَه. وبحسبِ «Perrone وNannini»، فإنّ الأمّهات في علاقة سفاح القربى: لا يرونَ، لا يسمعنَ، يُنكِرنَ الأدلَّة، حتّى لو كانت حقيقة[18].

الحالة رقم (6): ضاعت الرغبة: فالتهمتْ لحمَها لكي يعود السلام[19]

«ليلى» في السادسة من عمرها، يعمل والدها في بلدٍ عربيّ منذ أكثر من ثلاث سنوات بسبب الحروب التي مرّت على لبنان والوضع الاقتصاديّ المتردّي، وتعمل أمّها بدوامَيْن في مجال المحاسبة. هي الصغرى لأخت تكبرها بسنة ونصف وتوأم لفتاة تكبرها بدقائق. لا تُفرِّق الأمّ بين «ليلى» وأختها التوأم، فهما تشبهان بعضهما كثيرًا وتشبهان الأمّ. تسلّمت الأمّ زمام الأمور بسبب غياب الوالد، وهي ذات مستوىً تعليميّ واقتصاديّ واجتماعيّ جيّد، إلّا أنّ الوضع العائليّ يسوده الضياع في الأدوار.

• طلَبُ الاستشارة والتقنيّات

طَلبت الأمّ المشورة عندما بدأت «ليلى» بقضم أطراف يدها، وبدا العظم تحت اللّحم وانعدمَ الشعور بالأطراف. هذا فضلاً عن قضمها الكراسي الخشبيّة ونقْرها بأسنانها. يحصل ذلك كلّه مِن دون القدرة على التحكّم بالفعل أو بتوقيته، لذا ثمّة حاجة إلى شخصٍ يُنبِّهها لما تفعل.

خلال الجلسات تمّ استخدام التقنيّات التالية:

1 ـ لعبة التركيب: وهي لعبة تعتمد على تركيب القطع بعضُها بجانب بعضِها الآخر حتّى يتمّ إنجازُ الصورة المُرفقة باللّعبة. إلّا أنّ الفتاة وَجدت صعوبةً في تمييز القطع وترتيبها بحسب الصورة.

(17) Sigmund Freud, *Les théories sexuelles infantiles dans La vie sexuelle* (Paris: P.U.F., 1908).

(18) Raynaldo Perrone, Martine Nannini, *Violence et abus sexuels dans la famille* (Paris: ESF; 5e édition, 2012).

(19) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «سعاد علم الدّين».

2 ـ puzzle: لم تستطع تركيب أيّ قطعة من اللّعبة، أو التفكير بالمُحاولة.

3 ـ المعجون: لم تَستطع الاستمرارَ طويلًا في لمْسِه وعبّرت عن أنّها لا تشعر به.

4 ـ اللّمس: أظهرت التقنيّة أنّ حاسّة اللّمس مفقودة لدى الفتاة، إذ استطاعت تمييز القماش الخشن لا النّاعم.

5 ـ الحيوانات: جَمعتِ الحيوانات على شكل أُسَرٍ (الأسد ـ اللّبوة) وأَخذتِ الأسدَ لتلعبَ معه.

6 ـ الرسم: رَسَمَتِ القلوبَ والورودَ والحمامةَ وغصنَ الزيتون، وكانت تُعبِّر عن سعادتها.

7 ـ أكمل الجملة: أحبّ...، أحبّ هديّة...، أحبّ اللّعِبَ مع...، أحبّ النزهة مع...، أحبّ الأكلَ مع...؛ أكملت «ليلى» كلّ الجمل بـ «**بابا**».

- **وصف حالة النقلة وتموضُع المُعالِج**

بعد الصمت استجابت «ليلى» وعبّرت عن وجَعِها من خلال التقنيّات. عبّرت عن علاقتها بأخواتها وعن حاجتها إلى الأمّ والأب الغائبيْن وعن الحرب التي أبعدتهما. فرَسمتْ ما رسمتْ عن السلام والسعادة بفرح، وعبّرت عبر اللّمس والمعجون عن فقدانها الحبّ والطمأنينة، وعبّرت من خلال الحيوانات عن العائلة والسعي لإيجادها.

- **تاريخيّة الحالة**

وُلدت «ليلى» من رَحِم أمٍّ حاقدة على المُجتمع «الصعب»، غاضبة من الحروب اللّبنانيّة وما خلّفته وراءها من أوضاعٍ اقتصاديّة (خسارتها لمُمتلكاتها) واجتماعيّة (تشتُّت عائلتها في أرجاء الوطن العربيّ) ونفسيّة(وما أكثرها). عاشت سنينها تُحارب الحربَ بعِلمها وعَملها، وهي الرافضة حقيقة أنّها فتاة وأنّها لم تُنجب سوى الفتيات.

الفتاة هنا (ليلى) هي الابنة الصغرى (حتّى على صعيد توأمها)، وهي آخر محاولة للأمّ لإنجاب الصبيّ. «ما إجت بوقتها، ما كنّا ناطرينها وبنت!»، «ولادتها كانت صعبة، إجت واضطرّ بيّا يسافر، صاروا كتار علينا» قالت الأمّ.

هربتِ الأمّ للعمل بدوامَين، وسافرَ الأب للبحث عن حياة كريمة، وسافرتِ الفتاة مع حبّها وتعلّقها. هو الذي فرح لولادتها ووَعَدَ بالاهتمام بها، وهو الذي اضطرّ لترك العائلة

«لحمايتها». أبعدته الحرب وشتّت أركان العائلة، ومضت ثلاث سنوات ولم يرَ بناته سوى عبر الفيديو و«ليلى» تنتظر وعد الأب، تنتظر رجوعه، تنتظر مَن يُحبّها ويحميها، فتبحث عن رغبتها الغائبة «هيدي الحرب بَيْعدتني عنه بس حيرجع أنا بعرف».

- **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

تشعر الفتاة بالدونيّة، والقلق، والرفض، والاستبعاد. تخاف التواصل مع الآخرين، كلّما تكلّمت تقطّعت أنفاسُها لتجمعها من جديد وتُكمل حديثها.

تتماهى مع أمّها وتُبرِّر خياراتِها بأنّها تُشبهها بالشكل، فكيف لا تُشبهها بالتصرُّفات وعدم القدرة على التعبير؟ «أنا ما بركِّز منيح متل ماما».

- **التحليل**

وُلدت «ليلى» وكأنّها ولدت بحرب وجوديّة. رفضتها الأمّ وكأنّها عدوّتها ويجب الدفاع عن نفسها بتهميشها، وكأنَّها هي الحرب نفسها، وهي التي تسبَّبت بها ويجب محاربتها للعودة إلى السلام. هي الحرب التي أبعدت الأب عن عائلته، وشتّتت أفرادَها. «ما كان ناقصنا بنات»، طارئة على العائلة، وزائدة في توأمتها. الأمّ في ضياع لعدم قدرتها على التعرُّف إلى ابنتها، كيف لا وهي الأمّ الرافضة تاريخها ونفسها فكيف تقبل بشبيهتها؟

تحبّ الفتاةُ والدَها بكلّ تفاصيله، شكله، لِعَبِه، هداياه، قوّته، حمايته وقبوله... هو محور حياتها، والحرب أبعدته عنها. هرب من الحرب وتركها تُحارِب وحدها، تهرب من أفكارها. أدّى حرمانُها وضعفُها إلى قضم أصابعها للسيطرة على ما يجول داخلها لتفريغ عدوانيّتها تجاه الأنثى (الأمّ والأخوات) حيث تُحاوِل الحصول على المتعة الغائبة، على الحبّ الضائع مع ضياع موضوع الحبّ.

في سلوكها الـلّاإراديّ والـلّاواعي، تبحث «ليلى» عن التواصُل الذاتي حيث لم تَجِد المجال للتواصل مع المحيط، مع الآخرين. هي بحاجة إلى الحماية والطمأنينة والأمان الذي تفتقده بفقدانها الثقة بالنفس في العائلة ولعدم معرفة موقعها ودَورها في أركان أسرتها. ففي كلّ مرّة تُحاوِل قضمَ أصابعها أو كرسيّها الخشبيّ تُحاوِل التعبيرَ عن مشاعرها الأساسيّة للحياة الطفوليّة: الحبّ، الحنان، الأمان والحماية. تحاول ترك أثرها على جسمها وكرسيّها، مُحارِبةً نفسها بأسنانها القارضة، الناقرة، الحافرة، الآكلة لجلدها

ولحمها ولكرسيّها ومكانتها، كما أكلت الحرب حبّها وحياتها، وسلبت رغبتها وقوّتها، وشرَّدت عواطفها وبعثرت طفولتها، وقتلت أيّامَها.

وكأنّها تُعيدنا إلى القبائل في صحراء أوستراليا الوسطى، الذي تحدّث عنها Géza «Róheim»[20]، حيث تأكل الأمُّ طفلًا من كلِّ طفلَيْن، لتقوى وتأخذ جمالها ورونقها وللحفاظ على البقاء؛ و«ليلى» هنا تُعيد التهام نفسَها كما التهمتْها أمُّها لتستعيد قوّتها وتُدافِع عن رغبتها ومشاعرها المُتضاربة.

ليلى هي ذلك الجنديّ الصغير الذي يُحارب لجمْع العائلة وهو نفسه السبب بتفرقتها؛ هو الذي يُحارب للحصول على حبّه وتعلّقه وهو مَن دفعه لتركه؛ هو الذي يُطيع ويسمع الأوامرَ وهو المُستبعَد من رغباته.

ليلى هي الفتاة التي أَتت مُكرهةً، بصورة توأم مُكرّرة، تجول في عالَم والدَيْها الذي لا تفقهه ولا يفقهها، تُحاوِل التعبير بحَيْرَةٍ عن رفْضها ورغبتها، تبحث بأسنانها عن هويّتها، تلك هي الطفلة العدوّة المجنَّدة.

الحالة رقم (7): طفلة الشارع موصومة بالحرب[21]

• تقديم الحالة

«آمال» طفلة تبلغ من العمر 11 سنة، من أبٍ سوريّ ـ أردنيّ هاجر إلى لبنان بحثًا عن عمل، وأمٍّ عانت من الحرب على لبنان في العام 1982 ونزحت إلى منطقة النبعة. وُجدت الفتاة على الطريق، وتمّ وضعها في مَيتمٍ يُعنى بالأطفال.

• طَلَب الاستشارة وظروف الجلسات

تمّت الجلسات في مركز الدِّراسة التابع للمَيتم، حيث كانت «آمال» تُحاول ابتزاز المُعالِجة والناظرة للحصول على مُعامَلة خاصّة. كانت تحبُّ التميُّز وأن يكون موعدُها هي هو الأوّلَ، وذلك للحصول على مكالمة هاتفيّة مع أهلها خارج الدوام. كما كانت

(20) Géza Roheim, «Myth and folk-tale». *American Imago 2*, no. 3 (1941): 66-279.

(21) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيّدة «نظيرة باسيل».

وفي أثناء كلّ جلسة، تصرّ على دخول المرحاض لتتكلّم بأمورها الخاصّة وكأنّها تتكلّم مع أمّها.

لقد تمّ العملُ معها من خلال التقنيّات التالية: البسيكودرام، لعبة الدُّمى، اختبار Louisa Düss، الرَّسم، الكتابة، القراءة، واللّعب. ومن خلال هذه التقنيّات استطاعت «آمال» التعبير عن خيانة أمّها لأبيها، وعمّا رأت وسمعت من أمّها أثناء مضاجعتها الرجال الذين كانت تسمّيهم «خُطّابَها»، وعن السوداويّة التي تعيش بها وعن الغَيْرة التي تنتابُها تجاه أبيها.

- **تاريخيّة الحالة**

وُلدت «آمال» من أمٍّ وأبٍ عاصرا الحرب وتهجّرا بسببها وتزوّجا من خلالها وطلّقا لآثارها وكان عمرها سبع سنوات. الأمّ تهجّرت من جنوب لبنان جرّاء الاجتياح الإسرائيلي في العام 1982 إلى منطقة النبعة، والأب هاجر بحثًا عن عمل. بعد الانفصال، عادت الأمّ والفتاة إلى منطقة النبعة، وأصبحت «آمال» طفلةً في الشارع والأمّ في بيوت الدَّعارة.

- **العوارض**

يظهر من خلال تصرُّفات «آمال» أنّها طفلة أُمِّيّة وذكيّة، عانت من التشرّد ومن اضطراباتٍ في المزاج، ومن نوبات غضب وحزن وعناد حادّ. ترفض السلطة وتفرض سلطتها، ولا تستطيع التواصُل مع أصحابها إلّا مع الذي تختاره من بين الصِّبيَة ليكون حصرًا لها وتكون حظرًا عليه.

- **التحليل**

أثَّرت في «آمال» أربعة عوامل أساسيّة نتيجة الحرب على لبنان؛ فأهلها عاشوا الحربَ بكلّ مُعاناتها وآثارها. وتطلّقَ والداها وانفصلا ليعيش كلٌّ منهما في بلدٍ وليغدو لكلٍّ منهما حياته الخاصّة، فسكنت الفتاة الشارع (وهو من أحياء حزام الفقر لمدينة بيروت) وعانت من مخاطره واستغلاله وقسوته.

امتصّت «آمال» ورضعت اضطرابات والدتها الناتجة عن الحرب. أدّى ذلك، إلى جانب انفصال والدَيْها، إلى صعوباتٍ تعلّميّة وسلوك عدوانيّ وتقلّبٍ في المزاج، فضلاً

عن رفضٍ للسلطة واضطرابٍ عاطفيّ، وأنشطة جنسيّة مُبكِرة. كيف لا والفتاة ترى أمَّها بأمّ عينها تُمثّل الإثارة وتأتي برفقة الرجال لاستلامها من المركز؟

إنّها الفتاة التي تشرّدت اجتماعيّا وعاطفيًّا وحاولَت إرضاء أمّها بالبحث عن فالوسٍ وهميّ ـ بتفرّدها بالصبية ـ لإبعادها عن الخيانة وليعود والدها ولتعود رغبتها به.

إنّها الفتاة التي حملت مُعاناة عائلة هاجرت، فعانت وتشرّدت ثمّ انحرفت للبحث عن اللّذّة الضائعة.

الحالة رقم (8): هذيان طفلة: آثار الحرب من اللّاتواصل إلى الصدمة[22]

- **تقديم الحالة**

«منال» في الحادية عشرة مِن عمرها، من أمٍّ عراقيّة عانت من حرب العراق فهاجرت إلى لبنان وتزوّجت من لبنانيّ (الأب) عانى أيضًا من الحرب اللّبنانيّة.

- **طلب الاستشارة والتقنيّات المُستخدَمة**

طلبت الأمّ الاستشارة العياديّة لابنتها، بعدما طلبت المدرسة من الأهل متابعة الطفلة نتيجة تصرُّفاتها، مثل عدم القدرة على الانسجام مع المحيط، والتكلّم باستمرار مع نفسها تجاه الحائط.

في بداية الجلسات تكلّمت «منال» اللّغة الفرنسيّة لأنّها ترفض لهجتها العراقيّة. ولم يكُن من السهل التواصل معها، وبخاصّة أنّها تعيش في عالَمِها الخاصّ. لم تنجح معها تقنيّة الرسم التي رفضتها ودخلت بعدها في مشاعر اضطهاديّة وحركات غير متناسقة. كما لم تستطع الكلام بالمباشر عن نفسها أو عن عائلتها، إلّا أنّها استطاعت أنْ تُعبِّرَ وتتجاوبَ مع قصص Louisa Düss بالتعابير التالية: «العصفور مات»، «الفيل قصقصوه كلّه»، «الأب ما بياخد الفتاة أيّ مشوار»، «الحلم بخوّف». وانتقلت إلى اللَّعِب بالتماثيل الصغيرة بصمت؛ وشيئًا فشيئًا استطاعت أن تتكلّم على قصصهم التي استطاعت من خلالها التعبير عن بُغضها لأمّها، وعن كيفيّة خيانتها لوالدها عبر الهاتف مع رجل عراقيّ،

(22) حالة من تقديم المُعالِجة النفسيّة السيِّدة «نظيرة باسيل».

وعن غيرتها من أختها المفضّلة لدى الجميع. استطاعت «منال» من خلال التقنيّات التعرّف إلى الفرْق بين الواقع والخيال واستطاعت الأمّ من خلال سلوك «منال» التوصُّل إلى قبولها ومُحاولة احتضانها.

- **تاريخيّة الحالة**

«منال» الفتاة الأولى للعائلة، وعند ولادتها قرّر الزوجان العودة إلى العراق بعد خضّات هذا الزواج وخيباته. وما هي إلّا فترة قصيرة ـ كثرت فيها التفجيرات في العراق ـ حتّى عادت العائلة إلى لبنان حاملةً معها أزماتها واكتئابها.

بسبب كلّ ما عانت منه العائلة، من هجرٍ وتركٍ وحروبٍ وأَسرٍ، كانت الأمّ تتصرّف مع الرضيعة بردّات فعلها الاكتئابيّة، مِنْ ترك وعدم اهتمام سوى بما يُبقيها على قَيد الحياة؛ فكانت تضع لها الرضّاعة مسنّدة على الوسادة، من دونَ أن تلمسها أو تحضنها أو تتحدّث إليها.

والأب في دكّانه منشغلٌ إلى ساعاتٍ متأخِّرة لكسب لقمة العيش وهربًا من زوجته ـ كما تقول الزوجة ـ. وهكذا نمت الطفلة مِنْ دون تواصل أو عاطفة، إلى أن قرّر الزوجان إصلاح زواجهما بإنجابٍ ثانٍ، فوُلِدت فتاةٌ ثانية بعد سنتَيْن من ولادة «منال». فبدا وكأنّ الأخيرة وُلدت من جديد مع قدوم أختها التي دفعتها لتعلّم الأحرف، وكانت سببًا لتواصُلِها مع أهلها.

تأخّرت «منال» في تعلُّم الكتابة والقراءة، إلّا أنّها استطاعت في ما بعد التعويض والتأقلُم. إلى أن جاء اليوم الذي انتقلت فيه إلى فرعٍ آخر لمدرستها في قريةٍ أخرى لها إدارة أخرى؛ وبعدما كانت الأمّ توصلها إلى المدرسة أصبح الباصُ هو البديل، فبدأت بالتراجُع الدراسي وظهرت عوارض الهذيان عليها.

- **العوارض والأواليّات الدفاعيّة**

نُلاحِظ سلوك «منال» الهذياني من خلال تكلّمها مع نفسها، وعدم القدرة على التواصُل مع الرّفاق، وعدم التركيز، واللّامبالاة لِما يحصل من حولها والهرب من واقعها إلى عالمٍ متخيَّلٍ أكثرَ أمانًا وأقلّ صراعًا، وأكثر تواصلًا وحمايةً وأقلّ ترْكًا وقلقًا.

- **التحليل**

عانت «منال» منذ ولادتها من جرّاء اكتئاب أمّها، فتُركت وحيدة بغرفة مِن دون اهتمام ولا رعاية ولا قبول. فكانت بحربٍ مع ولادتها لتبقى على قيد الحياة. فالأمّ تركت بلدها للبحث عن الأمان، والأب ترك بدوره بلده للبحث عن الأمان، فتركا الطفلة وحيدة تبحث أيضًا عن الأمان. ففكرة الترك ومعاناة الحروب التي عاشها الأبوان انتقلت إلى الطفلة ولم تستطِع التعبير عنها إلّا عندما انتقلت من مبنى دراسي إلى آخر، وانتقلت من مصاحبة الأمّ إلى المدرسة، ليكون بديلها الباص، فظهر الهذيان عند «منال».

وهذه الحالة ذَكَرَها فرويد من خلال مفهوم «Nachträglichkeit» «l'après-coup»[23] وهي إعادة لوضعيّةٍ حدثت سابقًا وتمّت استعادتها بسبب عدم القدرة حينها على التعبير عنها. فهذه الفتاة حملت كلَّ معاناة الأهل من جرّاء الحروب على بلادهم، وعدم قدرتهم على تخطّي أزماتهم التي جعلتهم غير قادرين على التعامُل مع طفلتهم، سوى عبر صعوباتهم في التأقلُم مع المحيط.

إنّ ما حملته الأمّ من اكتئاب جَعَلَها غير قادرة على التواصل مع رضيعتها ـ غير المرغوب بها ـ. وعندما استفاق اللّاوعي عند طفلتها لم يستطع التواصل لا مع الأشخاص ولا مع الواقع. فنشأت الطفلة من رَحَم مُعاناةٍ حربيّة لتُحارِبَ نفسَها وحياتها ومُجتمعها عبر هذيانها، ولينشأ عالَمُها الذي هو مِن دون آخر، عالَمٌ خاصّ وآمن.

تحليلٌ عامّ لمُعطيات الحالات

يُمكِن القولُ إنّه وانطلاقاً من الحالة رقم 8، وهو ما ينطبق على بقيّة الحالات، ينقل الأهل بسهولة قلق الانفصال من جرّاء مُعاناة الحرب إلى لاوعي أطفالهم الذين يستعيدونها في كلّ مرّة وكأنّها أوّل مرّة «l'après-coup» أو في الألمانيّة «Nachträglichkeit». وهو مفهوم فرويديّ تحليليّ أشار إليه فرويد سنة 1917 على أنّه تعديل نفسانيّ تلقائيّ للأحداث السابقة يُصاحبه عدم تقبُّل واضح للمعاني وللوضعيّات الأولى التي تتشكّل من جرّاء الصدمة المُتلقّاة. وهو نوع من التأجيل اللّاواعي الحامي (موقّتًا) من الصدمة،

(23) Sigmund Freud, «Mes vues sur le rôle de la sexualité dans l'étiologie des névroses», *Résultats, idées, problèmes, (1890-1920),* (Paris: PUF, 1984).

لكنّه لا يمنعها لاحقًا وترتبط العودة إليها لاستخراجها بدَور المحلِّل الذي يُركِّز على ثلاثيّة «**الظهور**» و«**الاختفاء**» ثمّ «**الانبعاث**» (avènement-disparition-résurgence).

تتسجّل الصدمة في اللّاوعي لِما للفعل من حقيقة ومعانٍ؛ وحتّى لو تموضعت في الخفاء فهي تبقى تلك الحقيقة التي لا نُريد الاعترافَ بها لأنّها قائمة على إدراك النقص من خلال تفاقُم الصورة، فتتمّ الاستجابة عبر فبركة العودة بمنحىً وظائفيّ يرفض التروما. وتتكوّن ساعتها ذاكرة متعدِّدة رافضة تَظهر في وضعيّاتٍ مكبوتة أخرى.

ما يجمع بين الحالات المطروحة هو «الجرح» (blessure). تشعر الحالات باللّا أمان وهلع الحرب، كما تشعر الكثير من الحالات بالمزاجيّة، والنكوص بهدف العودة إلى وضعيّات عاطفيّة طفليّة؛ وقد رصدنا في الحالات الكثيرَ من العدوان على النَّفس وعلى الآخر في إطار سلوك انعكاسيّ نَزَويّ. فالحالة (1) على سبيل المثال استبدلَتْ قتل الأب بانكساره، وقَتلتْ رغبتَها بالأمومة مِن دون الاعتراف بالتماهي بأمّها. الحالة (2) استبعدَت دَور أهلها واستبدلتهم بأجدادها ظنًّا منها أنّها تستبعد الحرب...؛ ولا ننسى أنّ صدمة الحرب تُعيد إحياءَ النزوة المتراكمة فتتواجه نزوة الحياة بنزوة الموت... أمّا الحالة (4) فما بين الخوف من الحرب وواجب طاعة الأهل تأخَّرَ طلبُ الحماية لديها: هي أفعالٌ من تراكمات... تراكمات تعابريّة للأجيال تنشر إرثَ تروما عائليّة ومُعاناة الاجداد. ويمكن أن تكون هذه الحالات من ضحايا المشكلات العائليّة القديمة (أفكار ـ معتقدات ـ مواقف ـ تربية ـ هجرات ـ حرب ـ جروحات ـ ولادات ـ تنميط جندريّ...). وفي الحالات الأخرى تعرّفنا إلى تراكم أخذ حيِّزًا في الوعي وظهر على شكل مؤشِّرات ارتبطت بالموروثات. موروثات ترتبط بالبُعد التعابريّ للأجيال من خلال «شبح الأسرة» وبتعقيدات العصر التي لا يُمكِن تجاهلُها وما نتج عنها من قلقٍ ومن كسرٍ للثقافة الأصليّة.

وفي عصرنا الحالي زادت «الشعبويّة» التي لا بدّ مِن أن تُؤثِّر في التراكمات وفي تكوين الشخصيّة؛ وهذا ما برهنه Adorno من خلال تركيزه على تنميط الحياة الحاليّة بحيث أصبح تنميطًا مرضيًّا من خلال وسائل التواصل الجماهيريّة التي تنشر أنساقًا وأنماطًا تُجيد القولَ: «نحنُ أفضل مَن يُعلّمكم ويُخبِركم».

هو تعلُّمٌ يكسر السائدَ لكنّه لن يتمكّن من كسر المُتوارَث الذي لا يتوانى عن الظهور عبر «دلالاتٍ مشفّرة» جاهزة للتحليل لكنّها غير جاهزة دومًا للتعبير.

خلاصة

تتنامى ظاهرة الأطفال ضحايا الحرب كتعبيرٍ عن عَولمة الصراع بغياب سَنِّ قوانين حماية عالَميّة. ما يعني إدخالهم وزجّهم في الحرب: إزاحة العنف باتِّجاه الفئات العاجزة.

صعوبة التصالح والمصالحة إبّان الحروب التي تبدو دومًا استمراريّة سياسيّة لكن بأواليّات أخرى، هي الذهاب إلى أبعد حدود، هي مبارزة ما تلبث أن تصل سريعًا إلى الصغار والصغيرات، يتلقَّفونها ويُدخلون مفهوم العدوّ والحداد والانتماء والضحيّة ومن ثمّ الشعور بالذنب وهذا ما بدا في الحالات المعروضة. ولا ننسى أنّ مفهوم الحداد[24] Le deuil هو مفهوم أساسيّ في إشكاليّة الحروب وتقوم عليه الإشكاليّات الأخرى، ولا سيّما «الترك» أو الانفصال والفراق. وهي إشكاليّات تفضي إلى مشاعر متلاحقة من الحبّ والكره ولا تنتهي إلّا بانتهاء الحداد؟ فهل تمكّنت الصغيرات من ولوج حدادهنّ إلى نهاياته؟ وحتّى في اقترابهنّ من العلاج، هل أكملْنَ الطريق أو سَمَحَ لهنَّ الأهلُ باستكماله إلى ما بعد الحداد أو أنهنَّ وقفْنَ في دائرته الباتولوجيّة؟ إنّه الحداد الممنوع الذي يتحدّث عنه «شوقي عازوري» ويُشبِّهُ بحداد الحرب العالَميّة الأولى الذي حوَّل الأمواتَ إلى أبطال، والذي يزيد التناقض ما بين الحبّ والكره لأنّ تضحية الآباء ـ الجنود Pères/Soldats ربّما جعلتهنّ (أي الصغيرات) مشروع جنود تضحية غير قابلٍ للحداد عليه. فالموت لا يُمكِن إلّا أن يُولِّد الموت، فتتلاقى الأجيال على نقلٍ ثقافيّ للموت (أنظر فكرة Douville عن إرث الحرب وتجنيد الأطفال). تغيّرت وظائفهنّ الأنثويّة وسعيْنَ إلى أدوارٍ ذكوريّة فتمّ استبعادهُنَّ اجتماعيّا.

في الحروب، تستيقظ كلّ النزوات الأوّليّة، البدائيّة. تصبح الذاكرة ممتلئة بالصدمات وبالصور المُرعبة التي لا يُمكِن التعبيرُ عنها بالكلمات. إنّ الصغار والمُراهقين في الحروب يخافون، يقلقون، لا يملكون الموضوع (l'objet) الذي يُساعدهم على تجسيد معاناتهم، لذا يحاولون التفتيش عن موضوعٍ خارجيّ ليتخلّصوا من القلق والخوف عبر إشباع نزواتهم الجنسيّة، فحلّت الفتاة مكان الموضوع الجنسيّ والعاطفيّ.

(24) Chawki Azouri, «Deuil fini, deuil infini», *L'orient-le-jour* (2 April 2021).

وفي عودةٍ إلى «عدنان حبّ الله»[25]، تُزيل الحروب الأهليّة بشكلٍ جذريّ شخصيّةَ الأب في السلطة وتستبدلها بالخصومات الأخويّة القاتلة، وتُؤدّي إلى الإلغاء نفسه لأيّ شخصيّة رمزيّة قادرة على دعم المثل الأعلى.

تقوم الروح المعنويّة للجماعة على الروابط بين الجماعة ورئيسها وتأثير ذلك على الروابط بين الجماعة لأنّ الدوافع اللّيبيريّة هي أساس تلك الروابط: الحبّ والتساوي في الحبّ وإيقاظ الروح المعنويّة، ما يسمح للفرد باكتساب شعور القوّة وبناء الأنا الذي لا يتحقّق إلّا من خلال الانتماء للجماعة.

إنّه الرابط الاجتماعيّ الذي يُبنى من خلال اللّغة العلاجيّة التي تُمكِّننا وحدها من رصْدِ بنية الرغبة وأُطر التماهي. فالإشباع لا يُمكِن أن يحصل مِن دون أن يمرّ بوظيفة الكلام الخلّاقة (Parole) لكنْ بأزمنته العلاجيّة المتعدِّدة: القبول ـ الكلام ـ الفهم ووعي المشكلات ـ التغيير. ومع الصغيرات لا بدّ من مساعدة الأهل، فهل يتمكّنوا من العبور وتجاوُز مداميك التعثُّر والتثبُّت والتعصُّب الجندريّ؟

إنّه انبناءٌ تصاعديّ يُشبِهُ بناءَ العمارة[26] ريثما يتمّ الوصول إلى علاجات الحبّ والرغبة والدافع والأنسنة، أو إلى علاج التروما؛ ذلك أنّ التروما هي زمنٌ يُعيد تكوين العلاقة التبادليّة مع الآخر.

(25) عدنان حبّ الله، مرجع سابق.

(26) Viviana Melo Saint-Cyr Bravo, «Architecture et psychanalyse-l’art de bâtir dans la théorie lacanienne de la sublimation» (Thèse de doctorat, Paris 8, 2009).

لائحة الملاحق

ملحق رقم 1: جدول رقم (1)

الحالة الأولى، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ التوتُّر الشديد وتناوُل المهدِّئات	ـ خفقات القلب السريعة، قطْع الأنفاس وصعوبة التحدُّث، عدم القدرة على التحرّك
الاضطرابات في التفكير	ـ عدم القدرة على التركيز	ـ تداخُل الأفكار وصعوبة في تنظيمها
الاضطرابات في التصرُّف والسلوك	ـ الغضب المتكرِّر ـ العدوانيّة	ـ الانزعاج الدائم، نوبات الغضب على ابنها الذكر، الشجار مع الزوج لغيابه ـ ضرب ابنها، الخوف من الموت لأخيها أو ابنها، وقتل أجنّتها
الاضطرابات العاطفيّة	ـ مشاعر متناقضة	ـ تعنيف الابن والخوف من خسارته: «الموت بأثّرعليّي كتير»
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي ـ الإسقاط	ـ التشبّه بأنثى العائلة المنصهرة بالوجع والرّافضة للذكر ـ إسقاط غضبها السريع على ابنها وزوجها.

ملحق رقم 2: جدول رقم (2)

الحالة الثانية، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ مشكلة في البراز	ـ الاحتفاظ بالبراز في الحفاض ورفْض خلْعه
الاضطرابات السلوكيّة		ـ تكسير القلم خلال الرسم وتمزيق الورقة ـ صعوبة في الكلام والنظر إلى الآخر والاستماع له ـ «تتحكّم بالعائلة عبر بكائها». تقول الأمّ
الاضطرابات العاطفيّة	ـ حبّ التملك ـ شعور بالاضطهاد ـ قلق الهجر ـ الارتهان للجدَّين ـ فقدان الأمان والحماية	ـ تخبئة ألعابها وأغراضها وأخْذ أغراض غيرها ـ اعتبار كلّ ما لدى الغير لها ـ البكاء الشديد عند مغادرة منزل الجدَّين ـ التعلّق بالجدَّين المُكتئبَيْن (أهل الأمّ) ـ غياب الأمّ والأب عنها، وترْكها عند الجدّين معظم الوقت
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي بالجدَّيْن	ـ اختيار اللَّون الأسود (لون المعجون، لون الثياب، لون قلم التلوين...). ـ لعِب دَور الجدَّين تجاه الأبَوَيْن (فرْض سلطتها، الاهتمام بهما...).

ملحق رقم 3: جدول رقم (3)
الحالة الثالثة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ توتّر أعصاب	ـ نوبات متكرِّرة من الغضب (دقّات في القلب سريعة، صراخ، بكاء، عدم انتظام في النوم...).
	ـ فقدان الشهيّة	ـ الشعور بالتعب وقلّة الحيويّة
الاضطرابات في التفكير	ـ شدّة التفكير	ـ هزّ الرأس بحدّة، تكرار الكلمات والتثبُّت بالأفكار، خوف من الفشل ووجود أفكار انتحاريّة
	ـ فرط التذكّر	ـ الاسترجاع الدائم لمسلسل الحرب والقلق من عودته
الاضطرابات في التصرّف والسلوك	ـ إدمان وعدم التكيّف	ـ كثرة التدخين، صدام دائم مع الأهل، الاستخفاف وعدم المُبالاة
	ـ العزلة	ـ عدم الرغبة بالخروج، عدم الوثوق بالأشخاص، التأنيب الذاتي
	ـ العدائيّة	ـ هاجس الانتقام من أمّها وإظهار كراهيّتها لها، غياب العلاقات البنّاءة
الاضطرابات العاطفيّة	ـ الشعور بالاكتئاب	ـ حزن شديد ويأس مستمرّ لعدم الشعور بوجود أهلها بجانبها، نظرة تشاؤميّة، عدم تقدير الذات والشعور بالدونيّة
	ـ الشعور بالهلع	ـ هلع من رؤية توابيت وتفجيرات مدمِّرة، ومن أن تصبح كوالدتها المكتئبة
الأواليّات الدفاعيّة	ـ الإسقاط ـ التماهي	ـ إسقاط عدائيّتها على والدتها، وعلى الآخر ـ التشبّه بالسلوك الانحرافيّ لوالدتها.

ملحق رقم 4: جدول رقم (4)

الحالة الرابعة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ اضطرابات في التنفُّس والعلاج بالأدوية	ـ تكرار الظواهر النذَفس ـ جسديّة
	ـ اضطرابات غذائيّة	ـ جسم وهِن
	ـ مشكلات في التعبير والحبال الصوتيّة	ـ صعوبة اللّفظ في حالة القلق
الاضطرابات في التفكير	ـ تأخُّرٌ دراسيّ ـ شرود فكريّ ـ كثرة اللّامقال	ـ أخت أكثر تفوُّقًا ـ عدم تركيز ـ السرّ العائليّ: الحرب والطلاق
الاضطرابات في التصرّف والسلوك	ـ العدوانيّة والعصبيّة	ـ الامتلاك والسلبيّة
	ـ عدم القدرة على التواصُل مع الأصدقاء	ـ الحقد: «هذا غير عادل، هي/هو ليس لديه الحقّ» والانطوائيّة
	ـ اضطرابات مزاجيّة	ـ انفعال سريع وغضب غير مبرَّر
	ـ اضطرابات النوم	ـ قلق، وكثرة أفكار
الاضطرابات العاطفيّة	ـ التبعيّة العاطفيّة والتحكُّم بالآخر	ـ تصرُّف رضيع يحتاج إلى اطمئنان، والشكوى من عدم تفهّمها
	ـ المُعاناة والقلق	ـ التلاعب بالمرض
	ـ جمود عاطفيّ	ـ سلطة أنثويّة. الأمّ: «لا يُمكِن فعلُ ذلك، قولي لي الحقيقة...»
	ـ الغَيْرة	ـ الغَيْرة من الأخت (أكثر جمالًا وإغراءً، ومستقلّة وتُشبِه أمّها)
	ـ الوسواس	ـ بالأفكار، والكتابة، والنظافة وحب الامتلاك
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي	ـ التشبّه بالأمّ (وكأنّها متوفّية وبفراغ عاطفيّ، فقدان الإحساس)
	ـ النكوص	ـ رغبات في السيطرة والانتقام، والتبعيّة للأم.

ملحق رقم 5: جدول رقم (5)

الحالة الخامسة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات في التفكير	ـ صعوبة التفكير لحلّ المآزم ـ اللّامُقال	ـ تشوّش في الأفكار، الانسحاب وتفادي المُواجَهة ـ سرّ التحرُّش الجنسيّ
الاضطرابات في التصرّف والسلوك	ـ الانطوائيّة	ـ عدم الرغبة بالاختلاط والمُواجهة، عدم القدرة على حماية الذات
الاضطرابات العاطفيّة	ـ الازدواجيّة في المشاعر ـ الشعور بتدنّي قيمتها الذاتيّة ـ الشعور بالنقص والعجز	ـ مشاعر بين الحبّ والجنس ـ الرفض والاستياء: «أنا بحسّ فعليًّا خسرت حالي، لمّا اطَّلَّع على المراية بحسّ إنّو مش أنا» ـ الإحساس بعدم الأمان (لأنّو بابا بعيد عنّي)، الحاجة إلى العناق الدافئ والحنان، الحزن لتَرك أمّها لها
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي ـ الكبت	ـ العلاقة الذوبانيّة مع الأمّ وأسرتها ـ عدم التعبير والشعور بالذنب

ملحق رقم 6: جدول رقم (6)

الحالة السادسة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ صعوبة في النطق ـ صعوبة في التنفُّس ـ التوتُّر	ـ التعبير بكلمات متداخلة غالبًا غير مفهومة ـ التكلُّم بنَفَسٍ متقطِّع ـ قضم الأصابع مِن دون الشعور بألم
الاضطرابات الإدراكيّة أو المعرفيّة	ـ عدم القدرة على التمييز والتّركيز	ـ عدم التمكّن من إيجاد وسائط الإسقاط والتماهي ومن ظهورها (صعوبة اختيار صور الحيوانات المتشابهة، صعوبة في تركيب الـ puzzle…)
الاضطرابات السلوكيّة	ـ العدوانيّة تجاه الذات ـ الخوف من التواصل	ـ قضم الأصابع ـ التأتأة وقِلَّة الكلام وعدم وجود أصحاب
الاضطرابات العاطفيّة	ـ الرفض والاستبعاد ـ فقدان الحبّ	ـ تقول الأمّ: «ما إجت بوقتها… إجت وسافر بيّها…» ـ التعلّق الشديد بالأب الغائب/قضم الأصابع
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي	ـ التشبّه بالأمّ في الشكل وفي التصرُّف: «أنا ما بركّز منيح مثل ماما…».

ملحق رقم 7: جدول رقم (7)

الحالة السابعة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ مشكلة في البراز ـ شراهة في الأكل	ـ دخول المرحاض خلال كلّ جلسة لطلب اهتمام وقبول المُعالِجة لها ـ الاستمتاع بالأكل بكميّة مفرطة (الفقر والحرمان)
الاضطرابات في التفكير	ـ صعوبات تعلميّة	ـ جهل وغياب الدعم (طلاق الأهل، التشرّد)
الاضطرابات في التصرّف والسلوك	ـ تغيّرات مزاجيّة ـ عدوانيّة ـ سلوك انحرافيّ	ـ نوبات من الغضب والحزن ـ ابتزاز الآخر والتحكّم به، صعوبة تكوين صداقات ـ أنشطة جنسيّة مبكرة، الاستغلال من قِبَلِ الآخرين
الاضطرابات العاطفيّة	ـ الخوف من التَرك	ـ التعلُّق المرضيّ بالمُعالِجة، الشعور بالاضطهاد
الأواليّات الدفاعيّة	ـ التماهي ـ الإلغاء ـ الإزاحة	ـ التشبّه بالثنائيّة المُتناقضة من الأمّ ـ حبّ وكره ـ عدم تقبّل ترْك الأب لها والعَيش على فكرة عودته وبأنّها ابنته المدلَّلة ـ التعبير عن مشاعرها من خلال الآخر.

ملحق رقم 8: جدول رقم (8)

الحالة الثامنة، عوارض وأواليّات دفاعيّة

الاضطرابات الجسديّة	ـ الجمود	ـ حركات غير متناسقة، ضعف التواصُل اللَّفظي، تعابير وجه ثابتة
الاضطرابات في التفكير	ـ صعوبات تعلُّميّة ـ التثبُّت على اللّغة الفرنسيّة	ـ عدم التركيز واللّامبالاة ـ رفض اللّغة العراقيّة (لغة الأمّ وذكريات الحرب)
الاضطرابات في التصرّف والسلوك	ـ عدم القدرة على الانسجام مع المحيط ـ سلوك هذيانيّ	ـ البقاء وحيدة، عدم القدرة على التواصُل والتجاوب مع الآخرين ـ التكلُّم مع نفسها
الاضطرابات العاطفيّة	ـ الغيرة ـ الاكتئاب	ـ الإحساس بالرفض وتفضيل الأخت عليها ـ شعور بالحزن واليأس: «العصفور مات»، «الاب ما بياخد الفتاة مشوار»
الأواليّات الدفاعيّة	ـ الإلغاء والانفصال عن الواقع	ـ اللّجوء إلى عالَم متخيّل (ما بعد الصدمة) أكثر أمانًا وأقلّ صراعًا

صورة الجسد في مُدن الصراع: الفتاة كما ترى نفسها كأنثى

نهى الدرويش ونهلة التميمي

مقدّمة

تُعَدّ الصراعات المسلَّحة إحدى مُهدِّدات الوجود البشريّ والإنسانيّ، سواء على المستوى الفرديّ أم الاجتماعيّ؛ إذ تَستهدف هذه الصراعات الوجود ماديًّا ومعنويًّا وقيَميًّا وأخلاقيًّا وتاريخيًّا. وغالبًا ما تكون النساء في مُجتمعاتنا العربيّة ضحايا مجّانيّة لهذه الصراعات لكونهنّ الشريحة الأضعف اجتماعيّا واقتصاديًّا وتعليميًّا في أكثر الأحيان، فضلًا عن كونهنّ يُمثِّلن، اجتماعيّا وأخلاقيًّا، وبحسب ثقافة مُجتمعاتنا، بوّابةً يسيرةً للهجوم العنفيّ المسلَّح للنَّيْل من كرامة الآخر ـ العدوّ وشرفِه، سواء أكان رجلاً أم أسرةً أم مُجتمعاً. ويزخر تاريخ العالَم بشتّى أنواع الانتهاكات العنيفة واللّاإنسانيّة التي تعرَّضت لها النساء في أزمنة الحروب والصراعات المسلَّحة الداخليّة، بحيث صارت المرأة في مُدن الصراع تُدرِك أنّ جسدها كأنثى يُشكِّل تهديدًا على حياتها وكرامتها الإنسانيّة. فكيف تنظر هذه المرأة إذن إلى صورة جسدها؟ وهل هذه النظرة سلبيّة أم إيجابيّة؟ وكيف تتشكَّل لديها هذه النظرة في بواكير شبابها، ولاسيّما في فترة المُراهَقة؟

أوّلًا: أهميّة البحث

تأتي أهميّة موضوع هذا البحث من ضرورة تحقيق إضافة علميّة إلى الدراسات النسويّة، ولاسيّما أنّ شخصيّة المرأة وتوجُّهاتها كإنسانٍ تُبنى منذ مراحل شبابها المبكّرة ومن بناء صورة جسدها التي تُشكِّل الأساس لهويّتها وذاكرتها؛ بحيث من شأن البحث والتقصّي في موضوعٍ كهذا أن يفضي إلى اقتراح سياسات وتقديم توصيات لتحسين أوضاع النساء وتصحيح مسارات بناء شخصيّة الفتيات وإعدادهنّ تربويًّا واجتماعيّا، وهو الأمر الذي تحتاج إليه مُجتمعاتنا وبلداننا التي تنوء تحت وطأة الصراعات والحروب المُستمرّة.

كما ترتبط أهميّة هذا البحث بأهميّة مرحلة المُراهَقة لكونها تمثِّل مرحلةَ البلوغ لدى الفتاة وما يرافقها من تغيُّراتٍ جسميّة وفسيولوجيّة، سواء في ما يتعلّق بحجْم أعضاء الجسم ونِسَبه أم بنموّ الخصائص الجنسيّة الأوّليّة والثانويّة؛ إذ يحدث النموّ بنِسَبٍ غيرِ مُتناسِقة، فتَشعر المُراهِقة بالخجل والإحراج، فضلاً عن أنّ انتقادات الآخرين لجسدها تؤثِّر في الفكرة التي تكوِّنها الفتاة عن جسدها. ثمّ إنّ الصورة النموذجيّة أو المثاليّة التي تطمح الفتاة إلى أن يكون عليها جسدها تنبني من ثقافة مُجتمعها الحقيقيّ والافتراضيّ ومن صُور المشاهير في وسائل الإعلام. فعندما تُقارِن المُراهِقة جسمها بهم تتشكّل لديها أحيانًا صورةٌ سلبيّة عن جسدها، فيما تتشكّل الصورة الإيجابيّة عنه من خلال ارتفاع استجابات القبول والرضا التي تتلقّاها من الآخرين، والتي تدفعُها إلى التجاوُب مع قدراتها وحلّ مشكلاتها بشكلٍ مُثمرٍ[1].

هناك عوامل عدّة مؤثِّرة في بناء صورة الجسد لدى المُراهِقة أهمّها: الأسرة، والأقران، والمدرسة، والإعلام ووسائل الاتِّصال والتواصل الاجتماعيّ، والبيئة الحاضرة والماضية، والبيئة النفسيّة، والثقافة المحليّة، والعوامل الأمنيّة، والأمن الشامل، والسياسة، وهي عوامل تُؤثِّر كلّها سلبًا أو إيجابًا في تقييمها لمظهر جسدها الخارجيّ مِن حيث الشكل العامّ ومَلامِح الوجه والرضا عن الجسد والاهتمام به[2].

(1) Winzeler, A. (2005). A Healthy Body Image. College of health and human services. *UNH Center on Adolescence*, 2. Retrieved from www.shhs.unh.ed.

(2) جمال فايد، صورة الجسم وعلاقتها ببعض انماط التفاعلات الاجتماعيّة لدى التلاميذ في مرحلة الطفولة المتأخّرة، **مجلّة كليّة التربية** في المنصورة. المجلّد 60، (2006)، ص 158.

تتكوّن صورة الجسد من ثلاثة مجالات رئيسة هي: **المجال الإدراكيّ** ويتضمّن إدراكَ حجْم الجسد ومكوِّناته؛ و**المجال الذاتيّ** ويتضمّن الرضا عن الجسد والاهتمام به والقلق بشأنه؛ و**المجال السلوكيّ** ويتضمّن تجنُّب المواقف التي تُسبِّب عدم الراحة أو التعب؛ وأيّ خللٍ في هذه المجالات الثلاثة سيُنتِج ما يُعرَف باضطرابات صورة الجسد، والتي تشمل اضطرابات شكل البدن ما تحت السريريّ، والاستياء الحميد، واضطرابات شكل الجسد الناتج عن اضطرابات سريريّة مثل الاكتئاب والقلق الاجتماعيّ، واضطرابات الطعام، واضطرابات سوء شكل الجسد. وتظهر أعراض هذه الاضطرابات على شكلِ أعراضٍ اكتئابيّة ناتجة عن عدم الرضا عن الجسد وإحساسٍ بالنقص، ما يدفع إلى الانطواء والبُعد عن الناس والشعور بالاشمئزاز من الجسد. وتتوزّع أسباب هذه الاضطرابات في ثلاث حزم هي: التركيز الزائد على الجسد، وانتقادات الآخرين، والعيوب الجسديّة[3].

غير أنّه ينبغي التمييز بين أعراض اضطرابات صورة الجسد وأعراض التغيُّرات الجسميّة في أثناء فترة البلوغ والتي تتمثّل بالرغبة في العزلة والتفرُّد، والنفور من العمل، وعدم الاستقرار والتذبذُب، والرفض والعِناد، ومقاومة السلطة، والانفعال الشديد، ونقص الثقة بالنفس، وشدّة الحياء، وأحلام اليقظة، والاهتمام بالمسائل الجنسيّة. ذلك أنّه خلال فترة المُراهَقة، يتكرّر القلق بشأن صورة الجسد بسبب تعاقُب التغيُّرات الجسديّة والمعرفيّة التي تحدث، ويكون التقييمُ والتركيزُ على الجسم وزيادة المظهر كبيرًا جدًّا[4].

ويُؤدّي عدم الرضا عن صورة الجسد لدى المُراهقات إلى زيادة مخاطر ظهور اضطرابات الأكل والاكتئاب وتعاطي المخدّرات وإساءة استخدامها والانتحار. وقد يتسبَّب عدم الرضا هذا لدى المُراهقات في بروز أعراض مثل اضطراب القلق الحادّ؛ إذ إنّ الضغط الملحوظ من الأسرة والأقران ووسائل الإعلام للتوافق مع

(3) فاتن مشاعل، «صورة الجسد لدى المراة وعلاقتها بكّل من الاكتئاب والقلق الاجتماعيّ وتقدير الذات لدى عيّنة من الإناث في محافظة اللّاذقيّة»، رسالة ماجستير غير منشورة/جامعة دمشق، 2010.

(4) Littleton, H.L., Ollendick, T., «Negative body image and disordered eating behavior in children and adolescents: what places youth at risk and how can these problems be prevented?» *Psychol. Rev, 6*, (2003): 51-66 doi: http://dx.doi.org/10.1023/A:1022266017046

المُثُل الاجتماعيّة والثقافيّة للجسد يُؤدّي بالفتيات إلى استيعاب هذه المُثُل بوصفها معيارهنَّ الشخصيّ، لأنّها تغدو مركزيّة لتقديرهنَّ الذاتيّ ولتحقيق ذواتهنَّ. ويُؤدّي هذا الاستيعاب المثاليّ للجسد إلى ظهور مقارنات اجتماعيّة مع الآخرين قائمة على المَظهر وإلى مُراقَبة الجسد والتفكير في الكيفيّة التي ينظر من خلالها الآخرون إليه[5]. غير أنّ هذه المُثُل الجسديّة يصعب تحقيقها. ولأنّ المَظهر الجسديّ هو مركز التقييمات الذاتيّة، يؤدّي عدم الرضا عنه لاحقاً إلى نتائج سلبيّة. وقد ركَّزت النظريّات على التأثير السلبيّ لكونه يتألَّف من أعراض الاكتئاب وضعف احترام الذات. وثمّة أدلَّة نظريّة وتجريبيّة تُشيرُ إلى أنّ أعراض اضطراب القلق، كعنصرٍ من عناصر التأثير السلبيّ، تظهر أيضًا و/أو تزداد سوءًا كاستِجابةٍ لعدم الرضا عن صورة الجسد عبر الآليّات الاجتماعيّة والثقافيّة[6].

إنّ الكيفيّة التي تَنظر بها المُراهِقة إلى نفسِها وإلى الطريقة التي تعتقد أنّ الآخرين ينظرون بها إليها، ومدى تقديرهم وتقييمهم لشخصها وذاتها، بما في ذلك صورة جسدها، إنّ ذلك يقع في صميم مفهوم احترام الذّات لديها. فالفتاة التي تتمتّع بتقديرٍ صحيٍّ وإيجابيّ لذاتها لا تنزعج من الأحكام والتعليقات الغريبة التي ينقلها الناس إليها. أمّا الفتاة التي تُعاني من تدنّي احترام الذات، فلديها آليّات تأقلُم واستجابة سيِّئة، بحيث قد يُؤدّي الضغط أو النقد المستمرّ لها إلى اتِّخاذها خطوات سلبيّة مثل إيذاء النفس أو العدوان أو العزوف عن الأكل، وقد تكون عرضة للتنمُّر والاغتصاب والمواعدة وسوء المعاملة والعنف وما إلى ذلك[7].

إنّ الوصول إلى فهْم لصورة الجسد لدى الفتيات العراقيّات في مُدن الصراع من شأنه أن يُوفِّر قاعدة انطلاق لِلتوعية حول الصحّة الإنجابيّة والجنسيّة، وكذلك حول الصحّة النفسيّة بشكلٍ عامّ لدى هذه الشريحة التي قلّ ما تتناولها الأبحاث والدراسات بشكلٍ ميدانيّ ومعمَّق.

(5) Fitzsimmons, Craft; Harney, MB; Koehler, LG, «Explaining the relation between thin ideal internalization and body dissatisfaction among college women: The roles of social comparison and body surveillance», *Body Image*, 9(1), (2012): 43-49.

(6) Stice E, «A prospective test of the dual-pathway model of bulimic pathology: Mediating effects of dieting and negative affect». *Journal of Abnormal Psychology*, 110(1), (2001): 124-135.

(7) TARSHI, *The Yellow Book* (1st ed.) (1 ed.) (New Delhi: Raj Press, 2010).

ثانياً: الورقة البحثيّة ومقاربتها

تُعَدُّ مرحلة المُراهَقة من أهمّ المراحل في حياة الإنسان، فهي فترة انتقاليّة بين الطفولة والمراحل العمريّة الأخرى، يتمّ خلالها استيعاب المفاهيم والقِيَم الاجتماعيّة ضمن سلسلة من التغيُّرات النمائيّة والفسيولوجيّة والجسديّة التي قد تُسبِّب القلق والانزعاج للمُراهِقة لكونها تَدخل عالَمًا جديدًا تجهله؛ إذ يصبح جسمها غريبًا عنها بسبب الخبرات الجسديّة والجنسيّة الجديدة، وتبدأ بتكوين صورة جسديّة جديدة تُناسب التغيُّرات الحاصلة؛ غير أنّ عدم إدراك المُراهِقة لهذه التغيُّرات قد يُؤثِّر في نظرتها إلى جسدها وقد يشوبها الشكّ والسلبيّة. فالتحوُّل إلى عالَم غير مألوف لا يبعث على الثقة، ويتّسِم بعدم الثبات والتقلُّب والكثير من التناقضات إذا رافقه ضعف قدرة المُراهِقة على تحديد دَورها بشكلٍ مناسب، وضعف تقديم الدَّعم المُناسب لها، سيُؤثِّر لا محالة في تحديد هويّتها بشكلٍ صحيح[8].

ولأنّ صورة الجسد لدى الفتيات تختلف بحسب المُجتمعات وبحسب الظروف الثقافيّة والاجتماعيّة والأمنيّة، لا بدّ من التساؤل: ما هي صورة الجسد لدى الفتيات في المُدن التي تعرّضت للصراع المسلَّح والعنف والإرهاب؟ ولأنّ الباحثتيْن لم تَعثرا على دراسةٍ ميدانيّة عراقيّة أو عربيّة (على قدر اطِّلاعهما) تناولت صورة الجسد لدى الفتيات العراقيّات في مُدن الصراع المسلَّح، ولأنّ ذلك يُشكِّل نقصًا معرفيًّا وعلميًّا لتشخيص أوضاع هذه الشريحة من النساء المُحتاجات إلى تحسين أوضاعِهنّ النفسيّة والاجتماعيّة من خلال برامج وسياسات محليّة ودوليّة على المستوى الحكوميّ والمنظّمات الدوليّة، يُعدّ هذا البحث مُحاوَلةً للتعرُّف إلى هذه الشريحة العمريّة من الفتيات ولتشخيص أوضاعهنّ. فهنّ لا يزلْنَ يعانينَ من مخلَّفات الإرهاب والصراع المسلَّح وآثارهما، ومن شأن مثل هذه البحوث حولهنّ، وإن كانت مُحاولات أوّليّة، أن توفِّر حلولاً لهذه الإشكاليّة.

ثالثاً: أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرُّف إلى صورة الجسد لدى الفتيات المُراهقات في المحافظات العراقيّة (الموصل، صلاح الدّين، ديالى، كركوك، الأنبار) اللّواتي عانَيْنَ من

(8) Croll, J. «Body Image and Adolescents». epi.edu, 2005, 2, 13.

وطأة الإرهاب، وما إذا كانت هذه الصورة إيجابيّة أو سلبيّة؛ هذا فضلاً عن كيفيّة مُواجَهة الفتاة لقصّة بلوغها في مدينةٍ تزخر بحوادث الخطف والسبي والاغتصاب وانعكاسات ذلك على حالتها النفسيّة، وأساليب تعامُل الأمّهات مع بناتهنّ في هذه المُدن، وذلك بالاستناد إلى وجهة نظر عيّنة من الفتيات وأمّهاتهنّ.

رابعاً: تحديد المصطلحات

1 ـ صورة الجسد: صورة ذهنيّة أو تصوُّر عقليّ ـ إيجابيّ أو سلبيّ، يُكوِّنه الفرد لنفسه وتُسهم الخبرات والمواقف في تكوينه. لذا فإنّ هذه الصورة قابلة للتعديل والتغيير في ضوء هذه الخبرات الجديدة[9].

2 ـ الفتيات المُراهقات: حدَّدت الأُمم المتّحدة (2011) ومنظّمة الصحّة العالَميّة المُراهِقين والمُراهقات كأفرادٍ تتراوح أعمارهم بين 10 ـ 19 سنة، وقسَّمت المُراهقين الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و14 سنة من ضمن مرحلة المُراهَقة المبكّرة، والذين تتراوح أعمارهم بين 15 و19 سنة من ضمن مرحلة المُراهَقة المتأخِّرة[10].

خامسًا: مُقارَبة نظريّة

أ. النظريّات المُفسِّرة لصورة الجسد

1 ـ نظريّة المُقارنة الاجتماعيّة: تمّ تطوير نظريّة المقارنة الاجتماعيّة من قِبَل فستنجر (Festinger) في الخمسينيّات من القرن الماضي، وأُجريَت حولها دراسات كثيرة. وبموجب هذه النظريّة، فإنّ لدى البشر دافعاً فطريّاً للمُقارَنة بالآخرين، وبخاصّة بمَن يُشبهونهم، وذلك من أجل تقييم أفكارهم وآرائهم وقدراتهم ومعرفة نقاط ضعفهم. وبالتالي، فهُم يحتاجون إلى رأيٍ دقيقٍ حول الأشياء والأشخاص الآخرين للعمل بفعاليّة. وتكون هذه المُقارَنة الاجتماعيّة إمّا تصاعديّة، أي تتّجه نحو الذين يعتقد الأشخاصُ أنّهم هُم الأفضل (وهي مفيدة للتعلّم من الرؤساء وتعزيز الذات) أو تنازليّة، أي تتّجه

(9) مجدي الدسوقي، **اضطراب صورة الجسم** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 2006) ص21.

(10) الأُمم المتّحدة، «صحّة المُراهقين. نماء المُراهِق تحوّل حاسم». **تمّ الاسترداد من صحّة الأم والوليد والأطفال والمُراهقين**، مُتاح على: https://www.who.int/maternal_child_adolescent/topics/adolescence/dev/ar/

نحو الذين يعتقدون أنّهم أدنى منهم. وقد أظهرت دراسة ويلز (Wills 1981) أنّ الناس يُفضِّلون المُقارَنة التنازليّة عندما يُواجهون سوء الحظِّ والتهديد، لكنّ هذه المُقارَنة التنازليّة قد تُساعِد الشخصَ من جهة أخرى على الشعور بتحسُّن إزاء إخفاقاته من خلال التركيز على الآخرين الذين لديهم عيوب مماثلة[11]. في حين قد تُؤدّي المُقارَنة التصاعديّة أحيانًا إلى خَيبةِ أملٍ وتدنّي احترام الذات.

2 ـ نظريّة تأثير الشخص الثالث (1983): بموجب هذه النظريّة فإنّ صورة الجسد وإدراك الجاذبيّة الجسديّة تتأثَّر إلى حدٍّ كبيرٍ وتُحدَّد بكيف ينظر الآخرون إلى الشخص وعلى وجه التحديد كيف يظهر الفرد للجنس الآخر. كما أنّ مَيل الأشخاص إلى التفكير بشكلٍ إيجابيٍّ عن أنفسهم ينمو عندما تكون المعلومات عنه من الآخرين غامضة وغير متوافرة. وأظهرت دراسات شوي[12] ودراسة فيشر وآخرين[13] أنّ الأنثى غالبًا ما تُخطِئ في تصوُّرها عن آراء الرجال بتحديد الجسد الأنثويّ الجذّاب.

3 ـ نظريّة التناقض الذاتيّ (1989): اِقترح هيجين نموذجًا لنظريّة التناقض الذاتيّ ترى أنّ للذّات ثلاثة أشكال: **الذات الفعليّة** التي تُشير إلى تصوُّر الفرد في ما يتعلَّق بخصائصه الشخصيّة؛ و**الذات المثاليّة** وهي الخصائص أو الصفات التي يرغب المرء في امتلاكها؛ و**الذات التي يجب أن تكون** وتُشير إلى الصفات والخصائص التي يعتقد الشخص أنّه مُلزَم بامتلاكها. ويحدث التناقض بين الذات الفعليّة والمثاليّة للفرد، وتظهر مشاعر مثل عدم الرضا والاكتئاب عندما لا يستطيع الفرد تحقيق رغباته وتطلُّعاته إلى الذات المثاليّة؛ وبالمِثل، يحدث التناقض بين الذات الفعليّة والذات كما يجب أنْ تكونَ وتظهر مشاعر مثل القلق والشعور بالذنب عندما يعتقد الشخص أنّه/أنّها قد انتهكَ المعيار أو أنّه لا يستطيع بلوغه مثلما توقَّع الآخرون منه. وفي سياق صورة الجسم، فإنّ الشخص عندما يُقارِن ذاته الفعليّة بالصورة المثاليّة المُعتمَدة أو بالنَّظرِ إلى تقدير المُجتمع، فمن المُحتمل أن يجد نفسه مقصِّرًا مع المعيار أو غير قادر على تلبية معايير الجمال المُصاغة من قِبَل

(11) Wood, J.V, «Theory and Research Concerning Social Comparisons of Personal Attributes», *Psychological Bulletin, 106* (2), 1989, 231-248.

(12) Choi, Y., Leshner, G., and Choi, J., «Third-Person Effects of Idealized Body Image in Magazine Advertisements», American Behavioral Scientist 52(2):147-164, DOI: 10.1177/0002764208321348

(13) Fisher, E., Dunn, M., and Thompson, J.K, «Social Comparison and Body Image: An Investigation of Body Comparison Process Using Multidimensional Scaling», *Journal of Social and Clinical Psychology, 21*(5), 2002, 566-579.

المُجتمع، ما يُؤدّي في النهاية إلى تناقُضٍ ذاتيّ متعلِّق بالجسم. وبالتالي، فإنّ ذلك يُسبِّب تغيُّراتٍ عاطفيّة ونفسيّة وسلوكيّة لدى الفرد. على سبيل المثال، عندما ترى المرأة نفسها على أنّها بدينة ولديها صورة الجسم المثاليّة مثلًا، تلك التي تحتوي على بنية منخفضة الدهون ورقيقة، فإنّها قد تنخرط في سلوكيّات مثل اتِّباع نظام غذائيّ وممارسة الرياضة وما إلى ذلك[14].

4 ـ نظريّة المخطَّط الاجتماعيّ (1990): استند كانتور (1990) إلى النهج المعرفيّ في نظريّته، فرأى أنّ البشر يعطون الاستجابة لمحفِّزات معيَّنة مع نظام داخليّ لهياكل المعرفة (المخطَّطات)، ويتمّ تخزين هذه المخطَّطات ضمن الذاكرة الطويلة المدى. هذه المخطَّطات الذاتيّة تُساعِد على دمْج أفكار الشخص ومُعتقداته حول ذاته ويُمكِن تطويرها لجوانب وخصائص متنوِّعة في شخصيّته مثل الخصائص الجسديّة والأدوار الاجتماعيّة والسمات الشخصيّة وما إلى ذلك[15]. ويتمّ إنشاء هذه المخطَّطات عندما يقوم الشخص بتقييماتٍ وتصنيفاتٍ حول الخصائص الجسديّة والسلوكيّة التي يتأثّر بها أو يصنعها بنفسه ومن خلال الآخرين. على سبيل المثال، عندما يتمّ إطلاق كُنيات وأسماء مستعارة على الشخص تحمل معاني السمين أو القبيح وما إلى ذلك، فهو/هي قد يبدأ في إدراك نفسه/نفسها على هذا النحو وقد يتبنّى سلوكيّات مثل اتِّباع نظام غذائيّ، أو وضع مكياج مفرط، إلخ[16].

ب ـ الفتيات في مُدن الصراع العراقيّة

لأجل فهْم أوضاع الفتيات المُراهقات في مُدن الصراع المسلَّح العراقيّة، لا بدّ من معرفة الجذر التاريخيّ لهذه الأوضاع من خلال قصص الانتهاكات التي تعرّضت لها النساء، وبخاصّة الفتيات دون سِنّ (18) سنة، وتطوُّر هذه الانتهاكات التي وصلت إلى حدودها القصوى وأنتجت تغييبًا واضحًا لدَور النساء وصوتهنّ سياسيًّا واجتماعيًا

(14) Vartanian, LR., «Self-Discrepancy Theory and Body Image. Encyclopedia of Body Image and Human Appearance», *Human Appearance, 2*, 2012, 711-717. doi: 10.1016/B978-0-12-384925-0.00112-7.

(15) Stein, K.F., «Schema Model of the Self-Concept», *Journal of Nursing Scholarship, 27*(3), 1994, 187-193. https://deepblue.lib.umich.edu/bitstream/handle/2027.42/69219/schemamodeloftheselfconcept.pdf?sequence=1

(16) Fisher, E., Dunn, M., and Thompson, J.K, ibid, 2002, 577.

واقتصاديًّا؛ فهذه المُدن ما زالت تعجّ بآثار الصراع المسلَّح، من دمارٍ وخرابٍ طاولَ الإنسان والمؤسّسات والمَرافق الرسميّة والمدنيّة كافّة.

تعود جذور الانتهاكات في مُدن الصراع المسلَّح في العراق إلى 9 نيسان 2003؛ فعلى إثر غزو العراق من قِبَل قوّات التحالف التي أسقطت النظام البعثيّ الصدّاميّ، الذي كان قد تفرّد بالسلطة ومارَسَ شتّى أنواع الانتهاكات بحقّ الشعب العراقيّ، تعرّضت مُدن العراق لشتّى أنواع العنف والتطرُّف والإرهاب والاحتراب السياسيّ بسبب انهيار مؤسّسات الدولة والتفلُّت الأمنيّ وغياب سلطة القانون. وكان ذلك عاملًا مشجِّعًا لاندلاع العنف مِنْ قِبَل الجماعات المتطرِّفة تحت ذرائع سياسيّة ودينيّة واجتماعيّة شتّى، كما كان لتسلُّل عناصر تنظيم القاعدة إلى الداخل العراقيّ في ظلّ انفلات الأمن الحدوديّ آثار سيِّئة تجلَّت في انتهاكاتٍ جديدة لحقوق الإنسان بعامّة وحقوق المرأة بخاصّة[17]. فقد تعرّضت الكثير من الفتيات القاصرات في مُدن شتّى من محافظات الأنبار والموصل وديالى إلى التزويج القسريّ خارج إطار القانون من طرف عناصر تنظيم القاعدة تحت تهديد السلاح أو من طريق مُبايعة ذكور العائلة لهذه العناصر، على الرّغم من أنّها مجهولة الاسم والهويّة وتُعرَف بكنياتها التي أطلقها عليها التنظيم فقط. وبعد مقتل أو هرب هذه العناصر، وأحيانًا مع ذكور العائلة الموالين والمُبايعين لها، كانوا يتركون خلفهم مئات القاصرات اللّواتي يجهلنَ مصيرهنَّ كمتزوِّجات أم كمُغتصَبات أم كأرامل، ومعهنّ أطفالهنّ المجهولي نسب الأب، ومن دون أوراق ثبوتيّة رسميّة. لذا حُرِموا من حقوق التعليم واكتساب الجنسيّة العراقيّة[18]. ومِن بين هؤلاء الأطفال عددٌ لا يُستهان به من الإناث[19]. واللّافت أنّ الحكومة ووسائل الإعلام والمُجتمعات المحليّة تكتَّمت في حينها عن هذه الانتهاكات بوصفها وصمة عار اجتماعيّة بحقّ سكّان المدينة، وبقيت قصص هذه الانتهاكات تُسرد

(17) ميلاد الجبّوري، «أطفال القاعدة ينشرون الرعب وينفِّذون المهمّات بحِرفيّة الكبار»، الحياة اللّندنيّة، **إيلاف**، متاح على: https://elaph.com/Web/NewsPapers/2010/11/612340.htm

(18) اري، دلوفان؛ جهاد، سلام، «أطفال مقاتلي القاعدة في العراق: ضحايا بلا هويّة يُهدِّدون بظهور جيل جديد من المتطرِّفين»، جريدة **الحياة** اللّندنيّة، 1. (17 3, 2013). **NIRIJ**، متاح على: https://nirij.org

(19) «أطفال القاعدة في العراق يدفعون ثمن أخطاء آبائهم»، **واشنطن بوست**، (22 9, 2010)، **رابطة المرأة العراقيّة**، متاح على:
https://iraqiwomensleague.com/mod.php?mod=news&modfile=item&itemid=5007#.YJ7qdBrXLIV

محليًّا كحكاياتٍ مُخزية مِنْ قِبَل شهود عيان محلِّيّين كانوا قد واكبوا هذه الأحداث وعلى معرفة بهؤلاء الفتيات وأسَرهِنَّ، ولم تنفضح هذه الانتهاكات على مستوى العراق والمنطقة والعالَم إلّا بعد مرور ثمانية أعوام على انسحاب تنظيم القاعدة من تلك المُدن. وقد عمدت بعض الأُسَرِ إلى تسجيل الطِّفل باسم والد الأمّ أو والدتها، فيما نَزَحَ بعض هذه الفتيات الضحايا إلى مُدن أخرى داخل أو خارج العراق طلبًا للمأكل والمأوى وهربًا من الوصمة الاجتماعيّة لهنّ ولأطفالهنّ. ولم تتمكّن الباحثة من الحصول على إحصائيّات دقيقة من جهات رسميّة لتعرف مصير هؤلاء الفتيات الضحايا وأطفالهنّ. لكنْ، وبعمليّة حسابيّة بسيطة، يُمكِن القول إنّ مئاتٍ من هؤلاء الأطفال، ذكورًا وإناثًا، الذين وُلِدوا بين العام 2004 و2011 وتتراوح أعمارهم حاليًّا بين 11و18 سنة، لا زالوا مجهولي المصير، ومِن دون مُعالجاتٍ قانونيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو تربويّة لأوضاعهم.

ولأنّ مُرتكبي هذه الانتهاكات بحقّ النساء والفتيات القاصرات قد أُفلِتوا من العقاب، ولأنّ مَنْ نال منهم عقابًا جنائيًّا كان قد ناله ضمن سياق إدانة العمليّات الإرهابيّة التي قام بها وتجريمها وليس لارتكابه جرائم الاغتصاب والزواج القسريّ من قاصرات، ولأنّ العراق لم ينضمّ إلى المحكمة الجنائيّة الدوليّة ومعاهدة روما[20]، بقيت هذه الجرائم مِنْ دون رادعٍ أو عقاب، فكان من الطبيعيّ أنْ تتكرَّر في صفحة إرهابٍ جديدة.

بعد أُفول صفحة القاعدة تكرَّرت قصص الانتهاكات مع الفتيات القاصرات بكلّ مأسويّتها مع استفحال تنظيم «دولة العراق والشام الإسلاميّة» المعروف بـ «داعش» الذي فرض سيطرته بدايةً على مدينة الموصل، وهي مركز محافظة نينوى شماليّ العراق وثانية كبريات المُدن العراقيّة. فقد تكلَّلت هذه السيطرة بسقوط المدينة بيد تنظيم داعش في 10 يونيو/حزيران 2014 ليمتدَّ بعدها إلى مُدن عدّة من محافظات كركوك وديالى وصلاح الدّين والأنبار. استمرّ تمدُّد تنظيم داعش في الموصل ثلاث سنوات كاملة، شهدت فيها المدينة ما لم تشهده أيّ مدينة أخرى منذ الحرب العالَميّة الثانية؛ إذ إنّه خلال هذه الفترة فقط، خرجت الموصل ومحافظة نينوى من معادلة المُدن، وباتت تُحكَم بالحديد والنّار، وشهدت مقتل آلاف المدنيّين، فضلاً عن الاعتداءات على النساء واغتصابهنَّ وسبْيهنّ.

(20) ارفع صوتك، «ناشطون: عدم انضمام العراق إلى المحكمة الدوليّة سَلَبَ ضحايا داعش حقوقهم.» 1 أيلول/سبتمر 2016 متاح على: https://bit.ly/3LfmkBF

فقد تعرّضت آلاف النساء الإيزيديّات والمسيحيّات لشتّى أنواع الانتهاكات التي يندى لها الجبين الإنسانيّ[21]، وانتشرت في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعيّ قصص هذه الانتهاكات التي استمرّت إلى ما بعد عمليّات التحرير العسكريّ التي بدأت في 17 أكتوبر/تشرين الأوّل 2017 ودامت قرابة عام[22]. وأثارت هذه القصص ـ وما زالت ـ رُعبَ العوائل في تلك المُدن خوفًا على بناتهنّ من الخطف والسبي والاغتصاب والقتل، وهو ما تسبَّب في منْع الكثير من الأهالي لبناتهنّ من الالتحاق بالدراسة أو حتّى الخروج من البيت[23]. وأثارَ انتشارُ كتيّبات داعش وتعاليمه حول قضايا النساء الرعبَ، وبخاصّة في ما يتعلّق بالعمل بموجب قاعدة «جواز بيع وشراء ووهْب السبايا الإماء، لكونهنّ محض مال يُمكن التصرُّف به... وجواز وطء الأمَة التي لم تبلغ الحلم إذا كانت صالحة للوطء، أمّا إذا لم تكن صالحة له فيُكتفى بالاستمتاع بها مِنْ دون الوطء... ويجوز ضرب الأمَة تأديباً»[24].

إنّ العيش في أتون نيران ذاكرة الحروب والصراعات والعنف المستمرّ بأشكاله كافّةً، لا بدّ أن تكون له آثاره النفسيّة والجسديّة والاجتماعيّة والجندريّة على شخصيّة الطِّفلات والفتيات المُراهقات، وهو الأمر الذي نُحاوِل دراسته في هذا البحث.

سادساً: منهج البحث وأدواته الإجرائيّة

1 ـ المنهج والتقنيّات: استخدمنا في البحث الحالي ما يأتي:

أ ـ المنهج الوصفيّ: لملاءمته طبيعة الموضوع، إذ يخدم هذا المنهج الدراسات التي تهتمّ بجمْع المعلومات والحقائق المرتبطة بمشكلات وقضايا تخصّ شريحة محدَّدة من المُجتمع البشريّ وبتلخيصها وتحليلها، وذلك لدراستها على نحو دقيق؛ كما استخدمنا

(21) «ماذا حدث منذ سيطر تنظيم «الدولة الإسلاميّة» على الموصل؟» **BBC**. متاح على:
https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2015/06/150610_is_fall_mosul

(22) «العراق يُعلن ‹انتهاء الحرب› ضدّ داعش، «**الحرّة**، 1. متاح على: https://www.alhurra.com/iraq/2017/12/09 أو
https://arbne.ws/3uEs7Lj

(23) مُعاناة نساء العراق تحت حُكم داعش»، **مرصد حقوق الإنسان**، 2016، متاح على:
https://www.hrw.org/ar/news/2016/04/06/288200

(24) «تنظيم الدولة الإسلاميّة يوزِّع كتيّب «السبي والرقاب» على مقاتليه». **المرصد السوري لحقوق الإنسان**، (15 12، 2014). تمّ الاسترداد من: https://bit.ly/3sq8u6V

منهج الخبرة في وصف الظاهرة وتحليلها من خلال الحصول على استجابات لعيّنات ذات علاقة وامتداد بمتغيِّرات البحث الحالي.

ب ـ أسلوب الملاحظة والمقابلة: أجرينا سلسلة من اللِّقاءات الحواريّة عبر برنامج واتس آب لجمْع المعلومات عن طبيعة الأوضاع الثقافيّة والاجتماعيّة والأمنيّة في كلّ محافظة من محافظات العراق المحدَّدة ضمن البحث الحالي، وحدَّدنا في ضوئها طبيعة الأسئلة المتضمِّنة في الاستبانة ونوعها بموضوعيّة وواقعيّة. ثُمَّ أجرينا سلسلة من اللِّقاءات مع أفراد العيِّنة.

2 ـ عيِّنة البحث: اختيرت عيِّنة الفتيات بالطريقة القصديّة حيث تمّ تحديد الفئة العمريّة للفتاة ثمّ الحصول على موافقة والدتها على شمول ابنتها بعيِّنة البحث واستجابتها لأسئلة استبانة المقابلة. وتكوَّنت عيِّنة البحث من (120) فتاة (انظر الجدول 1)، وقسِّمت إلى فئتَيْن (بحسب تعريف الأُمم المتّحدة للمُراهَقة): الفتيات في مرحلة المُراهَقة المبكرة ضمن الفئة العمريّة (10 ـ 14) سنة، والفتيات في مرحلة المُراهَقة المتأخِّرة ضمن الفئة العمريّة (15 ـ 19) سنة، وبواقع (3) مشاركات من كلّ عمر (4 أعمار) من كلّ فئة عمريّة، ومن كلّ محافظة وبمجموع كلِّيّ (120) فتاة.

الجدول (1)

توزّع أفراد عيِّنة البحث

ت	المُحافَظة	عدد المُراهقات بأعمار (10 ـ 14)	عدد المُراهقات بأعمار (15 ـ 19)	مجموع المُراهقات
1	الموصل	12	12	24
2	صلاح الدّين	12	12	24
3	ديالى	12	12	24
4	كركوك	12	12	24
5	الأنبار	12	12	24
المجموع		**60**	**60**	**120**

استبانة المقابلة: لقد أعددْنا استبانة مقابلة للفتيات، تتضمّن كلٌّ منها خمسة مجالات هي: وصف المُراهِقة لذاتها، والصحّة، وقصّة البلوغ، والجانب الاجتماعيّ، وحزمة العنف والاعتداء والتحرُّش والاغتصاب. وتضمنَّ كلّ مجال عددًا من الأسئلة الرئيسة بلغ مجموعها (22) سؤالًا، وتفرَّع من كلّ سؤال عدد من الأسئلة الثانويّة للحصول على إجابات على نحو معمَّق وبحسب متطلّبات البحث وطبيعة أهدافه وعيِّنته وخلفيّته العلميّة المنشودة.

2 ـ صدق الاستبانة وثباتها: لأجل التحقُّق من الصدق الظاهريّ للاستبانة، عُرِضت على مجموعة من الخبراء والمتخصِّصين في التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ومكافحة الإرهاب الذين بلغ عددهم (15) خبيرًا وخبيرة. جرى الأخذ بملاحظاتهم، وأُجريَت على الاستبانة بعض التعديلات البسيطة التي اتَّفق عليها الخبراء بنسبة 80%. وللتحقُّق من ثبات الاستبانة، جرى تطبيقها على (24) فتاةً، ثمّ تحليل الإجابات كمِّيًّا ونوعيًّا من قِبَلنا ومن قِبَلِ باحثة أخرى. واستعملنا طريقة «ألفا كرونباخ» في تحليل التبايُن لبعض الإجابات عن الاستبانة والتي كانت متدرِّجة البدائل، واتَّضح أنّها بنسبة 0,86%، وبنسبة اتِّفاق بين التحليليْن 77%، وهي نسب ثبات واتِّفاق جيِّدة.

3 ـ التطبيق النهائيّ: جرى التطبيق النهائيّ للاستبانة خلال المدّة من (2020/12/15) لغاية (2021/3/18)، وهذه المدّة طويلة نسبيًّا بسبب إجراء المقابلات من قِبَل الباحثتَيْن مع أفراد العيِّنة في (5) محافظات عراقيّة بعيدة عن بغداد، وتُعاني، ولا تزال، من أوضاع أمنيّة صعبة نسبيّاً، ما تطلَّب بقاء الباحثتَيْن في كلّ محافظة مدّة لا تقلّ عن (3) أيّام فضلًا عن يومَي السَّفر، وتنظيم مواعيد الزيارات لعائلة المبحوثات، حيث استغرق تطبيق كلّ استبانة معدَّل ساعة تقريبًا.

4 ـ أخلاقيات البحث: نظرًا لحساسية موضوع البحث بالنسبة إلى الثقافة المحلية في العراق، ولكون عينة البحث من الفتيات دون سن 18 سنة وأمهاتهن، لذا فقد اعتمدت الباحثة أولًا على مفاتحة أمهات الفتيات بأهداف البحث وطبيعة موضوعه وإجرائه، وأنه لا يتطلب ذكر الأسماء أو أي إشارة إلى هوية المبحوثات وأن الإجابات ستبقى مخصصة لأغراض البحث العلمي، ويمكن للمبحوثة أن تمتنع عن الإجابة عن أي سؤال أو تعتذر عن تكملة الإجابات، وأن الإجابة عن الاستبانة ستكون من خلال مقابلة فردية

بكل مبحوثة سواء أكانت الفتاة أم أمها، وطلبت منهن مفاتحة بناتهن أيضًا للحصول على موافقتهن مسبقًا، وكذلك عمدت الباحثات إلى تضمين هذه القيود الأخلاقية في ديباجة استبانة المقالة، وقراءتها واستحصال موافقة المبحوثة مباشرة قبل تطبيق الاستبانة.

سابعًا: عرض النتائج وتفسيرها

1 ـ نتائج إجابات أمّهات الفتيات: بعد تحليل الإجابات اتّضح، وبحسب ما تُظهِر نِسبُ الإجابات، وجود ضعف بشكلٍ عامّ في أساليب تعامُل الأمّهات مع بناتهنَّ حول قضايا البلوغ والحماية من العنف والإرهاب.

السّؤال الأوّل: كيف تعاملتِ مع قصّة بلوغ ابنتكِ؟ هل حدَّثتِها عن هذا الموضوع مسبقًا؟ هل تحدّثتْ هِي معكِ حوله؟ وكانت الإجابات:

أ ـ لم أكلِّمْها بالموضوع لأنّي أتحرّج من الكلام بهذه الأمور معها ـ بنسبة 63%.

ب ـ عرفتُ من خلال أعراض الألم التي كانت تعاني منها، ووجَّهتها ماذا تعمل بشكلٍ غير مباشر ـ بنسبة 21%.

ج ـ طلبتُ منها أن تُخبرَني إذا شعرت بأنّ لديها ألماً في بطنها ـ بنسبة 12%.

د ـ أعتقد أنّها تعرف عن طريق أختها الأكبر كيف تتصرّف بهذه الأمور ـ بنسبة 4%.

السّؤال الثاني: كيف تعاملتِ مع ابنتِكِ في ظلِّ قصص الإرهاب والعنف إزاء النساء في مدينتكِ؟

أ ـ كنتُ خائفةً عليها وعلى نفسي ولا أستطيع الكلام معها لكي لا تنصدم ـ بنسبة 43%.

ب ـ منعناها من الخروج من البيت لأيّ سبب كان ـ بنسبة 30%.

ج ـ عند سماعنا بسبْي الإيزيديّات صارت هي ترفض الخروج من البيت ـ بنسبة 27%.

السّؤال الثالث: هل تهتمّين بالتغيُّرات التي حدثت لجسم ابنتكِ؟ مثلًا نوع ملابسها كفتاة وليس كطفلة؟ توفير حمّالات للصدر؟ توفير حفاظات نسائيّة لأيّام دورتها الشهريّة؟

أ ـ ليس لدينا المال الكافي لشرائها ونكتفي عادةً بما هو متوافر لدينا في البيت ـ بنسبة 86%.

ب ـ لم تطلب منّي أيّ شيء من هذا وهذا يعني أنّها دبّرت حالها ـ بنسبة 14%.

2 ـ نتائج إجابات الفتيات: بعد تحليل الإجابات اتّضح أنّ معظم الفتيات يُعانين من صورة سلبيّة عن ذواتهنّ كإناث، وأنّهنّ يُعانينَ مِن اضطراب صورة الجسد والقلق المصاحب له، وظهرت أعلى النسب، وبحسب الترتيب، في كركوك، فالموصل، فديالى، فصلاح الدّين، ثمّ الأنبار. وهذه الإجابات كانت بنسبة 65% فأكثر، وجاءت على النحو الآتي:

أوّلًا: وصف المُراهِقة لذاتها: لا تعرف معظم الفتيات ما هي الأشياء التي ينبغي عليهنّ أن يفتخرن بها لكونهنّ فتيات. أمّا أكثر الصفات الجيِّدة التي وَصَفْنَ بها أنفسهنَّ واعتَقَدْنَ أنّ الآخرين يرونها فيهنّ فكانت صفاتٍ مثل: مؤدَّبة، ومطيعة، وبنت عائلة شريفة. وعبَّرت معظم الفتيات عن أنّهنّ لا يشعرن بالسعادة لأنّهنّ إناث، لأنّ ذلك يشكِّل عِبئًا وهمًّا على أهلهنّ إلى حين زواجهنّ. وبدا أنّ الفتاة منهنّ لا ترى نفسها جميلة مثل البنات في العاصمة بغداد، اعتقاداً منها أنّ لفتيات العاصمة ملابس أجمل وأنّ عوائلهنّ تسمح لهنّ بوضع المكياج، فيما هنّ يتمنَّيْنَ لو يستطِعنَ تغيير قصّات شعرهنَّ ولكنّهنّ يخجلنَ من القيام بذلك لأنّه يعني أنّهنّ أصبحنَ جاهزات للزواج (عرائس) أو يردْنَ ذلك، وهذا ما يُعيب الفتاة التي تكون بمثل هذا العُمر في مُجتمعها. كما أنّ معظم المبحوثات كنَّ يجهلنَ معنى احترام المرأة لذاتها كأنثى، إذ اتّفقت معظم إجابات الفتيات على أنّ احترام الفتاة لذاتها كأنثى يُقصد به أن تكون مطيعة لأهلها وألّا تتدخّل في أمور الكبار وأن تُحافِظ على سمعة أهلها وشرفهم. أمّا احترام الرجل لذاته كذكر فيُقصد به، من وجهة نظر المبحوثات، أن يعمل ويتزوّج ويُنجب أطفالًا، وأن يحبّ زوجته وأطفاله وبيته.

ثانياً: الصحّة: ليس للمبحوثات مُشارَكات في أنشطةٍ رياضيّة داخل البيت أو خارجه. وهنّ لا يعرفْنَ كيف يقوم الجسم بوظائفه. وعندما لاحظ معظمهنّ التغيُّرات التي طرأت على أجسامهنّ قبل البلوغ صِرنَ يخجلنَ من الظهور أمام رجال العائلة، مع محاولاتٍ لإخفاء بروز الصدر وأحيانًا ارتداء الحجاب حتّى في البيت. وفي ما يتعلّق بالغذاء، فإنّ الفتاة منهنّ لا تطلب أيّ نَوعٍ محدَّد وإنّما تقنع بما تأكله العائلة. وأعربت الفتيات عن شعورهنّ بأنّ أوزانهنّ انخفضت عن ذي قبل بسبب البلوغ لأنّهنّ كبرْنَ وصرْنَ أطول من السابق ولأنّ نموّ طول الإنسان يُقلِّل من وزنه. كما تُراعي الفتاة منهنّ شروط نظافة جسمها

وملابسها الداخليّة في أثناء دورتها الشهريّة ولكنّها تُعاني من إخفاء حفاظاتها النسائيّة. وعبَّرت معظم المبحوثات عن فهمهنّ البسيط لموضوعات الإخصاب والحمل والإنجاب والرّضاعة والعقم والأمراض التناسليّة المُعديَة، والذي يأتيهنّ من برامج التلفزيون.

ثالثًا: قصّة البلوغ: معظم المبحوثات لم يكُن لديهنَّ معلومات عن موضوع البلوغ، وشعرْنَ بالرُّعب عندما شاهدْنَ ملابسهنَّ الداخليّة ملوَّثة بالدِّماء، واستعنَّ بصديقات أو بإحدى القريبات لفهْم الموضوع ولمعرفة ماذا عليهنّ فعْله لئلّا يكتشف أحدٌ في العائلة سِرَّهنّ. فهنَّ لم يكنَّ سعيدات بموضوع البلوغ إطلاقًا ويشعرنَ بالقرف ويتمنَّيْنَ لو بقينَ طفلات.

رابعًا: الجانب الاجتماعيّ: وصفتْ معظم الفتيات أنّ علاقتهنّ بذكور العائلة جيِّدة ولكنّهنّ يخافونهم لأنّهم يضربونهنّ. وأكثر مَن يضربهنّ هُم الأمّ والأخ يليهما الأب ثمّ العمّ أو الخال. وتستعمل الفتاة منهنّ موبايل والدتها للمكالمات الهاتفيّة ولإرسال رسائل لصديقاتها فقط أو لمُشاهدة بعض المسلسلات التي تتابعها. كما تعتقد الفتاة أنّ أهلها يعرفون أنّها بلغت كفتاة ولكنْ لا أحد يُمكِن أن يتكلّم بهذه الأمور. وعن موقف المُجتمع من الفتيات اللّواتي في مثل أعمارهنّ كانت جميع الإجابات: أنّه مُجتمع ظالم يسمح للولد بأن يعمل كلّ شيء ويمنع البنت من أيّ شيء.

خامسًا: العنف والاعتداء والتحرُّش والاغتصاب: أجمعت كلّ المبحوثات على أنّ أفضل وسيلة للمحافظة على جسمهنّ من التحرُّش والاعتداء هو أن لا يخرجْنَ من البيت، وألّا يتكلّمْنَ مع رجلٍ غريب، وأنّهنّ عندما سمعْنَ بقصص الاغتصاب والخطف والأَسر والزواج القسريّ الذي تعرّضت له بعض الفتيات في مدينتهنّ شَعَرْنَ بالخوف الشديد، وتمنّيْنَ لو بقينَ طفلات، وأنّهنّ يحلمْنَ دائمًا بكوابيس أو تأتيهنّ أحلام يقظة غالبًا ما تكون موضوعاتها: اختطافهنّ أو اغتصابهنّ أو قتلهنّ وأنّ أفضل وسيلة للفتاة لكي تحمي بها نفسها هي عدم خروجها من البيت حتّى تتزوّج. وعبّرت معظم المبحوثات عن خوفهنّ من الاغتصاب وعن أنّهنّ يتمنَّيْنَ الموت قبل أن يواجهْنَ مثل هذا الموقف. وأجمعت المبحوثات على عدم شعورهنَّ بالأمان تجاه أيّ رجل غريب سواء أكان داعشيّاً أو متنفِّذاً في منطقة سكنهم أو حتّى من القوّات الأمنيّة؛ فهنّ لا يثقْنَ بأيّ رجل غريب، ويتوقَّعْن من أيّ رجل غريب أن يخطفهنّ ويعتدي عليهنّ. فمجرّد التفكير بموقفٍ كهذا تشعر الفتاة

بالرعب. وقد ردَّت الفتيات هذا إلى صغرِ سنّهنّ الذي يجعل الرجال يطمعون بأجسادهنّ كإناث، سواء أكانت الفتاة جميلة أم لا. وتمنَّت معظم الفتيات أن يتزوّجنَ للتخلُّص من طَمَعِ الإرهابيّين بأجسادهنّ، وأنْ يَعشْنَ في مكانٍ آخر خالٍ من الإرهابيّين سواء أكان خارجَ مدينتهنّ أم خارج بلدهنّ. فالمهمّ بالنسبة إليهنّ هو أن يَنَمْنَ مطمئنّات وألّا يحلمْنَ بمسلّحين يقتلون آباءهنّ ورجال عوائلهنّ ويغتصبونهنّ ثمّ يقتلونهنّ.

وعن السّؤال الأخير: هل تحبّينَ جسدكِ؟ هل ترينه جميلًا بعد بلوغكِ؟ أجابت معظم الفتيات بـ «لا... لأنّه سبب عذابي وقد يكون السبب بقتل عائلتي وقتلي أو بوصم أهلي جميعهم بالعار طول العمر».

بناءً على كلّ ما تقدّم، انتهى البحث ببعض التوصيات التي كان من أبرزها:

1 ـ بناء برنامج مُحوسب مُتسلسل المراحل للصحّة النفسيّة والإنجابيّة والتعافي من القلق وتدنّي احترام الذات وتحسين صورة الجسد لدى الفتيات في مرحلتَي المُراهَقة المبكرة والمتأخِّرة، على أن يُقدَّم البرنامج لهنَّ أونلاين مع خطّة تقييم التعافي المُحرز منه.

2 ـ دعم المنظّمات غير الحكوميّة وتشجيعها على تطوير مهارات الفتيات المُراهقات وقدراتهنّ في المجالات العمليّة والمهنيّة كافّةً ومحو الأميّة الأبجديّة والإلكترونيّة.

قاصرات نازحات في مواجهة تحدّيات الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة في أيّار/مايو 2021

تغريد السميري

مقدِّمة

منذ بداية الحصار الإسرائيليّ المفروض على قطاع غزّة عام 2007 حتّى اليوم، عاش ما يزيد على مليونَي فلسطينيّ أربع حروب مدمِّرة من حيث عدد الشهداء والخسائر الماديّة، كذلك عانوا من التصعيدات العسكريّة المتفرِّقة التي تحدث بين الاحتلال الإسرائيليّ والفصائل الفلسطينيّة بين الفينة والأخرى، ما يجعل سكّان القطاع يعيشون حالة طوارئ دائمة مترافقة مع الحصار المستمرّ والمفروض على حركة التنقُّل والاستيراد والتصدير. تكبَّد الفلسطينيّون في غزّة خسائر بشريّة كبيرة خلال الأعوام الأربعة عشر الماضية، فقد استشهد ما بين عامَي 2008 و2021 نحو 5297 فلسطينيًّا من بينهم 579 امرأة و259 فتاة[1]. وقد كانت الحرب الرابعة التي شنّها الاحتلال الإسرائيليّ على قطاع غزّة في 10 أيار/مايو 2021، والتي استمرّت لأحد عشر يومًا، هي الأشدّ منذ العام 2014. وكانت قد اندلعت شرارة هذه الحرب خلال شهر رمضان، وتحديدًا في 13 أبريل/نيسان 2021 في مدينة القدس المحتلّة، ثمّ

(1) Ocha, «Data on casualties», last visited on November 11.2021, Data on casualties | United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs-occupied Palestinian territory (ochaopt.org).

أخذت تتدحرج إلى الضفّة الغربيّة والمُدن العربيّة داخل الأراضي المحتلَّة عام 1948، ثمّ قطاع غزّة. وكانت المُواجهات قد بدأت بعد اعتداء قوّات الاحتلال الإسرائيليّ على عشرات الفلسطينيّين ومنعتهم من التواجد في ساحة «باب العَمود» في القدس المحتلّة، واشتدّت مع دعوة جماعات إسرائيليّة متطرّفة إلى «حرق العرب»، والتداعي لاقتحام واسع للمسجد الأقصى في 28 رمضان، كلّ ذلك بالتزامن مع التهديد بإخلاء أُسَرٍ فلسطينيّةٍ قسرًا من منازلها في حيّ الشيخ جرّاح[2]. ووفقًا لمفوّضيّة الأُمم المتّحدة السامية لحقوق الإنسان، استشهد في هذه الحرب 261 فلسطينيًّا من قطاع غزّة، من بينهم 67 طفلًا و41 امرأة، وأصيبَ أكثر من 2,200 فلسطينيّ بجروح، من بينهم 685 طفلًا و480 امرأة، وبعضهم قد يعاني من إعاقة طويلة الأمد تستدعي إعادة التأهيل[3].

في ذروة هذه الحرب الرابعة، التمس 113,000 فلسطينيٍّ المأوى والحماية في المَدارِس التّابعة لوكالة الأونروا أو لدى أُسَرٍ لاستضافتهم[4]. واللّافت أنّه حتّى شهر أيلول/سبتمبر 2021، كان لا يزال 8250 شخصًا مهجَّرًا يمكثون لدى أُسَرٍ تستضيفهم أو في شققٍ مُستأجرة في غزّة[5]. فلقد تسبَّبت القيود المفروضة على استيراد موادّ البناء ونقص التمويل في تأخير عمليّة إعادة البناء ما زاد من أمد التهجير.

لم يكُن عامل الأمان هو العامل الوحيد الذي اختار على أساسه الغزيّون المكان الذي ينزحون إليه، فلقد واجهوا جميعًا تحدِّيات عدّة أبرزها العامل المادِّي؛ فمعدَّلات الفقر في قطاع غزّة هي الأعلى في الأراضي الفلسطينيّة، حيث بلغت نسبة الفقر في القطاع قبل اندلاع الحرب الأخيرة 75% بحسب جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني، ما يعني أنّ كثيرًا من العائلات نزحت إلى المَدارِس أو لدى أُسَرٍ مُستضيفة، بسبب عدم مقدرتها

(2) عوض رجوب، «عدوان إسرائيل 2021 على غزّة.. تسلسل زمني»، **وكالة الأناضول**، متاح على: عدوان إسرائيل 2021 على غزّة.. تسلسل زمني (aa.com.tr).

(3) نشرة الشؤون الإنسانيّة | تشرين الثاني/نوفمبر 2021 ـ «غزّة بعد تصعيد أيّار/مايو»، **أوتشا**، متاح على: نظرة عامّة | تشرين الثاني/نوفمبر 2021 | مكتب الأُمم المتّحدة لتنسيق الشؤون الإنسانيّة ـ الأراضي الفلسطينيّة المحتلَّة (ochaopt.org).

(4) المرجع نفسه.

(5) «الاستجابة لحالة التصعيد في الأرض الفلسطينيّة المحتلّة»، **أوتشا**، متاح على: الاستجابة لحالة التصعيد في الأرض الفلسطينيّة المحتلّة | تقرير الحالة) العاشر (أيلول/سبتمبر 2021) | مكتب الأُمم المتّحدة لتنسيق الشؤون الإنسانيّة ـ الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة (ochaopt.org).

على استئجار شققٍ سكنيّة. أيضًا يقوم العامل الأمني بدورٍ في اختيار مكان النزوح، إذ ترفض بعض العائلات تأجير منازلها لبعض الغزيّين خوفًا من أن تكون عائلاتهم مرتبطة بالفصائل، ما يُمكن أن يُعرِّض بقيّة السكّان لخطر الاستهداف. كما يعطي الغزيّون معنًى اجتماعيّا لمكان النزوح خصوصًا لأماكن مثل مَدارِس الأونروا، ويأخذون بالاعتبار قدرة الأُسر المستضيفة على فصل النساء عن الرجال في منازلهم. كلّ هذه الاعتبارات المعقَّدة تتشابك معًا في أثناء اتِّخاذ القرار بالنزوح، وتلقي بظلالها على الفئات الأكثر هشاشة في العائلة (النساء والفتيات)، وتضعها أمام تحدِّيات صعبة ومعايير اجتماعيّة صارمة ينتجها التمييز الجندري والطبقي، خصوصًا أنّ التحدّيات المختلفة لدى النساء والرجال، الفتيان والفتيات تظهر تحديدًا في أثناء الحروب والنزوح[6]، كما أنّ النِّزاعات المسلَّحة تُسبِّب في تعميق عدم المساواة بين المجموعات العرقيّة، وفي مضاعفة التمييز ضدّ المجموعات المهمَّشة[7].

إنّ أكثر فئة عايشت فترة الحصار والحروب في قطاع غزّة هي فئة المُراهقين والمُراهقات الذين يشكِّلون نسبة 41.3% من سكّان القطاع، أي أنّ أغلبهم ولدوا في فترة الحصار وعايشوا الحروب الأربع التي كان من أبرز مَعالمها النزوح البشري من المناطق الشرقيّة للقطاع إلى المَدارِس التّابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللّاجئين، أو إلى عائلات مستضيفة أو إلى بيوت مستأجرة. كما كانت للمُراهقات الإناث مُعاناةٌ على نحو خاصّ، نظرًا إلى خصوصيّة وضعهنَّ في المُجتمع الغزّي المُحافظ. هؤلاء المُراهقات اختبرنَ ظروفًا قاسية وغير مألوفة حتّى بالنسبة إلى الفئات العمريّة الأخرى، لذا ستُركِّز هذه الورقة على تحدِّيات المُراهقات في أماكن النزوح خلال الحرب التي شنّتها الحكومة الإسرائيليّة في مايو/أيّار من العام 2021 على قطاع غزّة واستمرّت لمدّة 11 يومًا. ومن أبرز الأسباب التي جعلت الغوص في هذا البحث مغريًا، هي فرادة الشرط الفلسطيني، فإن الفتيات اللّواتي في عمر المراهقة الآن، قد اضطررنَ على الأقلِّ لمعايشة ثلاث أو أربع حروب تتالت على قطاع غّزة[8] (عام

(6) McKay, S., «The effects of armed conflict on girls and women», *Peace and Conflict*, *4*(4), (1998): 381-392.

(7) Kudakwashe, M. A., & Richard, B., «Causes of armed conflicts and their effects on women», *International Journal of Research* (2015): 77.

(8) علا عطا الله، «3 حروب إسرائيليّة على غزّة (إنفوجرافيك)»، **وكالة الأناضول**، متاح على: 3 حروب إسرائيليّة على غزّة (انفوجرافيك) (aa.com.tr).

2008 ـ حرب عام 2012 ـ حرب عام 2014)[9] والحرب الأخيرة عام 2021. لجأت معظم الأسر في قطاع غزّة إلى ثلاث وجهات رئيسة: أوّلًا: إلى مَدارِس الأونروا، ثانيًا: إلى بيوت العائلات المستضيفة، وثالثًا إلى شقق مستأجرة لمَن يملك القدرة الماديّة لذلك. لم تكُن تجربة النزوح سهلة خصوصًا على الإناث وتحديدًا المُراهقات. لم يكن تتالي الحروب على قطاع غزّة السبب الوحيد الذي دفع لطرح الأسئلة البحثيّة حول تحدِّيات المُراهقات، بل إنّ سلطة الذكور الكبيرة على الإناث في مُجتمع محافظ، شكَّلت دافعًا إضافيًا لمعرفة التحدِّيات التي قد تتفاقم في أثناء الحروب أمام المُراهقات خصوصًا أنّ الأدوار المسندة وفق الجندر والسلطة المفروضة من قبل ذكور العائلة قد تشهد تغييرات وتبدّلات في أثناء فترة النزوح. كما أنّ العامل الديموغرافي الفريد للتركيبة السكّانيّة في قطاع غزّة كان دافعًا للبحث في التحدِّيات التي واجهت المُراهقات في غزّة، إذ أكّد جهاز الإحصاء المركزي الفلسطيني في تقرير له أنّ مجموع سكّان قطاع غزّة بلغ 2.11 مليون نسمة في منتصف عام 2021، منهم 1.07 مليون ذكر و1.04 مليون أنثى، وقدّرت نسبة الأفراد في الفئة العمريّة (0 ـ 14 سنة) في العام نفسه بـ 41%[10].

إنّ تبدّل الأدوار الجندريّة في مُجتمع فتيّ ومحاصر خلال فترات متقاربة، بسبب تتالي الحروب على قطاع غزّة بالإضافة إلى إضفاء طابع ومفهوم اجتماعيّ على مكان النزوح،

(9) المصدر نفسه: بدأت الحرب الأولى في 27 ديسمبر/كانون الأوّل لعام 2008، شنَّت إسرائيل حرباً على قطاع غزّة، أسمتها «الرصاص المصبوب»، فيما أطلقت عليها حركة (حماس) اسم «حرب الفرقان»، استمرّت لـ«21» يوماً (انتهت في 18 يناير/كانون الثاني 2008). أمّا الحرب الثانية فبدأت في 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2012، حيث شنّت إسرائيل حرباً ثانية على قطاع غزّة أسمتها «عامود السحاب»، فيما أسمتها حركة حماس «حجارة السجيل»، واستمرّت لمدّة 8 أيّام. أسفرت تلك العمليّة العسكريّة عن مقتل 162 فلسطينيّاً بينهم 42 طفلاً و11 سيّدة، وإصابة نحو 1300 آخرين بحسب وزارة الصحّة الفلسطينيّة. أمّا الحرب الثالثة، فبدأت في السابع من يوليو/تمّوز 2014. شنّت إسرائيل حربها الثالثة على قطاع غزّة وأسمتها «الجرف الصامد»، فيما أطلقت عليها حركة المقاومة الإسلاميّة (حماس) اسم «العصف المأكول» واستمرّت «51» يوماً (انتهت في 26 آب/أغسطس 2014). وعلى مدار «51 يومًا» تعرَّض قطاع غزّة، الذي يُعرف بأنّه أكثر المناطق كثافة للسكّان في العالَم (1.9 مليون فلسطيني) لعدوانٍ عسكري إسرائيلي جوّي وبرّي، تسبَّب بمقتل 2322 فلسطينيًا، بينهم 578 طفلاً (أعمارهم من شهر إلى 16 عاماً)، و489 امرأةً (20 ـ 40)، و102 مسنّ (50 ـ 80)، كما جُرح 11 ألفا آخرون (10870)، وفقاً لإحصائيّات صادرة عن وزارة الصحّة الفلسطينيّة.

(10) «الإحصاء الفلسطيني وصندوق الأُمم المتّحدة للسكّان يستعرضان أوضاع السكّان في فلسطين بمناسبة اليوم العالَميّ للسكّان»، **الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني**، متاح على:
https://www.pcbs.gov.ps/postar.aspx?lang=ar&ItemID=4023.

يحدونا لطرح السؤال الأساسي: ما هي التحدِّيات التي واجهت المُراهقات في قطاع غزّة خلال الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزة أيّار/مايو 2021 وعلاقتها بأمكنة النزوح؟

ثمّة وراء تحديد التحدِّيات التي واجهت المُراهقات في قطاع غزّة ومعرفتها، خلال نزوحهنّ في أيّار/مايو 2021، أهداف عدّة أبرزها: اكتشاف الفوارق بين تجربة المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى مَدارِس الأونـروا، والمُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى بيوت عائلات مستضيفة، وأولئك اللّواتي نزحن إلى شقق مستأجرة من قِبَلِ عائلاتهنّ. كما تهدف الورقة إلى استكشاف الأدوار الجديدة التي أوكلت تبعًا للجندر والجنس خلال فترة النزوح والعلاقة بين مكان النزوح والأدوار المستجدّة. كذلك ستتطرّق الورقة إلى المسموح والممنوع في أماكن النزوح والمقارنة بينها، وإلى التحدِّيات التي واجهت المُراهقات النازحات على مستوى التعبير عن مشاعرهنَّ ومخاوفهنّ، وعلاقاتهنّ مع العائلة النوويّة (الأمّ والأب) والعائلة الممتدّة. كما ستحاول الورقة البحثيّة أن تُبيِّن اختلاف مصادر السلطة بحسب اختلاف مكان النزوح (مَدارِس الأونـروا، العائلات المستضيفة، شقق مستأجرة). وستطرح الورقة أسئلة عن قدرة المُراهقات على تطوير أساليب تكيّفهنَّ خلال الحرب والنزوح؟

تمّت مقاربة هذه التساؤلات والأهداف من منطلقات عدّة أولها: النظر إلى خطورة تحوّل بعض التحدِّيات التي تُواجِه الفتيات إلى شكل من أشكال العنف القائم على النوع الاجتماعيّ. ففي حالات الطوارئ والنزوح تصبح النساء والفتيات أكثر هشاشة وضعفًا مع انهيار الخدمات الأساسيّة وتقلُّص سُبُل العيش، وقد يُحرمنَ أيضاً من الوصول إلى الموارد والفرص والخدمات، وهذا بحدِّ ذاته شكل من أشكال العنف المبنيّ على النوع الاجتماعيّ[11]. أيضًا قد يتوقّع من الفتيات تولّي دور مقدِّمي الرعاية لأفراد الأسرة المصابين أو المساعدة في الأعمال المنزليّة التي كانت في السابق من مسؤوليّة أفراد آخرين، أو أنْ يتوقَّفنَ عن تعليمهنَّ من أجل أداء دور منزليّ كزوجات أو مقدِّمات رعاية[12]. وتزداد فرصة حدوث ذلك في قطاع غزّة مع تسبُّب القيود المفروضة على استيراد مواد البناء ونقص

(11) Wolfgang, Gressmann, *From the Ground Up: Gender and conflict analysis in Yemen.* (Oxfam GB for Oxfam international 2016), 26.

(12) Nader Said-Foqahaa, *The Imperative of mainstreaming gender In humanitarian action In Palestine: six case studies from Gaza* (Gaza strip: UN WOMEN. 2020), 14.

التمويل بتأخير عمليّة إعادة البناء، ما زاد من أمد النزوح والتهجير بحسب تقرير صادر عن (أوتشا)[13].

كما انطلقت هذه الورقة من أنّ الحروب المتتالية على قطاع غزّة لها طبيعة دوريّة، تتعلّق بإعادة إنتاج العواقب والتأثيرات الجندريّة نفسها. كما أنّ التأثيرات وعواقب الحروب ذات الطابع الجندري لا يتأثَّر بها الذكور والإناث، وكبار السنّ بالقدر نفسه، من دون إغفال تأثُّر الذكور بهذه العواقب[14]. لكنَّ الحرب التي شُنَّت على قطاع غزّة في أيّار/مايو2021 فاقَمَتْ من المخاطر المرتبطة بالجندر، وعوامل الهشاشة أو الضعف على مستوى الاحتياجات الإنسانيّة بين النساء والفتيات والرجال والفتيان في غزة، وذلك بحسب تقرير صادر عن الأُمم المتّحدة بُعَيْد عدوان 2021[15].

أيضًا استندت الدراسة إلى عيّنة غرضيّة purposive sample، وعلى الرغم من أنّ باحثين كثرًا اعتبروا أنّ التحيُّز في هذه العينة هو أحد عيوبها الأساسيّة، إلّا أنّه سيتمّ النظر إلى أنّ قوّة هذه العيِّنة بهذه الورقة تكمن في التحيُّز المتعمَّد الذي تنطوي عليه[16]. هذا التحيّز للفئة التي تدرسها الورقة لن يكون بإنكار أو إغفال تأثير التركيب الجندريّ على الذكور، بل بالتحيُّز للفئة الأكثر هشاشة وهي الفتيات الإناث.

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة تمّ تنظيم ثلاث حلقات نقاش مركَّزة[17] (اثنتان نُفِّذتا بتاريخ 31 تمّوز/يوليو 2021 والثالثة في 5 آب/أغسطس 2021)، شاركت فيها 23 فتاة تتراوح أعمارهنَّ بين 12 و18 عامًا وتمّت مراعاة متغيِّر العمر، ومتغيِّر النزوح أيضًا (أنظر الرسم البيانيّ رقم 1) في أثناء استخدام هذه العيّنة. عُقِدت حلقات النقاش في مناطق حدوديّة في قطاع غزّة (الحلقتان الأولى والثانية في بلدة «وادي السلقا» شرق مدينة دير البلح، والثالثة في المنطقة الحدوديّة لبلدة القرارة شرق محافظة خان يونس). تمّ أخذ موافقة الأهالي المسبقة على مشاركة أطفالهنّ في هذه الحلقات الثلاث، واطَّلعوا مسبقًا

(13) تقرير أوتشا. المرجع السابق.

(14) Nader said-foqahaa, Samer said, *Gender and War in Gaza untangled: what past wars have taught us* (Gaza strip: UN WOMEN, 2021), 21.

(15) Nader said-foqahaa, Samer said, Ibid, p. 4.

(16) Ma Dolores C, Tongco «Purposive sampling as a tool for informant selection,» *Ethnobotany Research and applications*, no. 5 (2007): 147-158.

(17) شاركت ابتسام السميري في تنظيم حلقات النقاش المركّزة وإعدادها.

على محاور النقاش، كما وافقوا جميعًا على استخدام الاسم الأوّل الحقيقيّ لطفلاتهنّ وعمرهنّ والمكان الذي نزحنَ إليه. استُخدِمت اللّغة العربيّة خلال النقاش وتحديدًا اللّهجة المحليّة لقطاع غزّة، كما تم تسجيل حلقات النقاش المركّز ومن ثمّ تفريغها وتعميم الأجوبة التي تكرَّرت كثيرًا، باستثناء التجارب الفريدة. كما تمّت إدارة حلقات النقاش المركّز الثلاث من خلال استبانة موحّدة حملت أسئلة عدّة مفتوحة مرتبطة بالحرب الأخيرة على قطاع غزّة (عدوان 2021)، تمّ الحديث فيها عن التحدِّيات التي واجهت الفتيات على مستويات عدّة من بينها: العناية الشخصيّة في ظلّ النزوح، العلاقة مع أفراد الأسرة، التكيّف مع المكان والواقع الجديد الفروق الجندريّة والضغوط النفسيّة والتعبير عن المشاعر وتمّ ربطها جميعًا بالمكان الذي تمّ النزوح إليه إنْ كان إلى منازل عائلات مستضيفة أو شقة مستأجرة أو مدرسة تابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللّاجئين «أونروا».

الرسم البياني رقم 1

المُراهقات والفروق الجندريّة

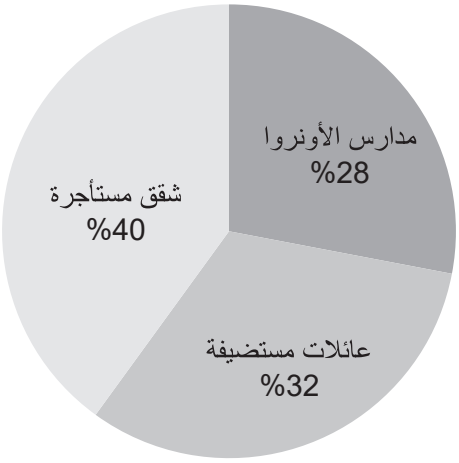

تتعرّض النساء والفتيات في حالات الطوارئ والنزوح، لضغوطٍ كثيرة تُحدِّدها الفروق الجندريّة السائدة في المُجتمع. في أثناء هذا تصبح النساء والفتيات أكثر ضعفًا مع انهيار الخدمات الأساسيّة وتقلُّص سُبُل العيش[18]. كما يتّم تشديد الضوابط خلال فترة الحروب

(18) Gressmann, Wolfgang ibid, (2016), 48.

أو النزوح أو الطوارئ بشكل عام. وقد يتأثَّر بهذا التشديد كلٌّ من الفتيان والفتيات لكن بمستويات مختلفة، ففي حين يتمرَّد المراهقون الفتيان على هذه القيود، يميل مقدِّمو الرعاية إلى تركيز السيطرة على الفتيات أكثر من الفتيان[19]. يعود ذلك إلى أنّه في بعض البلدان ومناطق الحروب، مثل قطاع غزّة، فإنّ القيود المفروضة على النساء تكون بالأصل موجودة قبل النِّزاع كجزء من الأعراف والعادات الاجتماعيّة الموروثة التي تتفاقم مع النِّزاعات المسلَّحة، حيث يُؤدّي النِّزاع والنزوح بشكلٍ خاصّ إلى عدم الاستقرار وإعادة تحديد أدوار الجنسيّن ما يُؤدّي إلى مزيدٍ من الانهيار في أنظمة دعم المُجتمع[20].

لم يكُن سهلًا على المُراهقات اللّواتي شاركْنَ في هذه الدراسة أن يُميِّزنَ الفروق الجندريّة وكان الحديث يبدأ دومًا عن الضغوط التي تعرَّضْنَ لها كفتيات ومن ثمَّ يَعُدنَ للحديث عن مشاعرهنّ. تميل الفتيات اللَّواتي ينشأنَ في مُجتمعات محافظة أو مُجتمعات تغلب فيها السلطة الذكوريّة إلى التأقلم (التكيُّف) مع العنف والفروقات الجندريّة، ويملنَ إلى تقبُّله كأمرٍ عاديٍّ ما يجعل تمييزه بالنسبة إليهنّ أمرًا صعبًا. إذ تميل المُجتمعات عادة إلى إنكار العنف وليس تبريره فحسب، إذ أشارت الباحثتان نهوند القادري عيسى وفاديا حطيط إلى إنكار «أغلبيّة الأمّهات من النازحات السوريّات في لبنان وبنسبة 71% اختلاف طرق تعاملهنَّ بين الصبيان والبنات»[21].

تحدَّثت المُراهقات عن ضغوطٍ عدّة لم تكُن مفروضة عليهنّ في السابق، أي خلال نزوحهنَّ عام 2014، منها التزام الغرفة التي يجلسنَ فيها وعدم الاختلاط والالتزام باللّباس المحتشم. ومن بين الفروقات التي ذكرتها الفتيات أنّ الذكور كانوا يتمتّعون برفاهيّة الخروج إلى خارج مكان النزوح في فترة الحرب للتنفيس قليلًا من الضغوط النفسيّة، بينما منع ذلك عنهنَّ. عبَّرت سارة (حلقة النقاش المركَّز الأولى) عن ذلك قائلة «تمنَّيتُ في الحرب أن أكون شابًّا لا فتاة، لأستطيع التمتُّع ولو قليلًا بإمكانيّة المشي في ساحة المدرسة حيث كنّا».

(19) Suzan J.Song & Peter Ventevogel. *Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health* (Switzerland: Springer International Publishing, 2020), 28.

(20) Gressmann, Wolfgang ibid, (2016), 33.

(21) فاديا حطيط ونهوند القادري، **اللّاجئات السوريّات إلى لبنان: تحدِّيات الأمومة** (بيروت: الدراسة تمَّت بدعمٍ من المعهد الدوليّ للتربية ومؤسّسة فورد، 2019) ص 83.

إلى جانب هذا، أبلغت المُراهقات عن ضغوط تعرَّضنَ لها من أفراد العائلة الذكور، إمّا الأب أو الأخوة الذكور، وبالأخص في العائلات التي نزحت إلى المَدارِس، حيث أجمعت الفتيات المشاركات في حلقات النقاش المركَّز، على أنّهنّ كنّ ممنوعات من الخروج إلى ساحات المَدارِس التي يوجد فيها الرجال والشباب وذلك لتفادي أيّ اختلاط بين الجنسيّن والذي من شأنه أن يجلب العواقب والمشكلات. أيضًا تعرَّضت المُراهقات لضغوط تتعلّق بضرورة الالتزام بـ «الثياب المحتشمة كلّ الوقت في المدرسة، وكذلك التحدُّث بصوتٍ منخفضٍ» (منى ـ حلقة النقاش المركَّز الأولى). فُرِضَت هذه الضغوط على المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى الشقق السكنيّة المستأجرة أو عند عائلات أخرى مستضيفة، ولكن فقط في حال كانت العائلات الأخرى المشتركة في السكن فيها ذكور. كانت هذه حال ناهد ابنة 17 عامًا التي شاركت في حلقة النقاش المركَّز الثالثة وقد نَزحت إلى منزل عائلة مُستضيفة مع عائلتها، حيث قالت إنّ تعليقات أخيها الأكبر منها سنًا كانت تزعجها، حيث كان يفرض عليها أن تلتزم الغرفة وأحيانًا أن تخفض صوتها. أظهرت ناهد قبولًا وتطبيعًا لهذه السلطة من أخيها عليها، ولكنْ ما أزعجها هو أنّه كان «يُعطي أوامره هذه أمام الآخرين وليس وهُما منفردَيْن».

في هذا القسم أيضًا حاولت الورقة الحاليّة فهْمَ المسؤوليّات الجديدة التي وقعت على عاتق الفتيات المُشاركات خلال فترة النزوح. أوّلًا بالنسبة إلى المُراهقات اللّواتي نزحن إلى المدارس، فقد أجمَعْنَ على أنّ أمهاتهنّ كنَّ يقمن بجميع ما هو مطلوب من عناية بالصغار أو تحضير الطعام أو أيّ شيء آخر وذلك تفهمًا من هؤلاء الأمّهات للضغوط التي تتعرّض لها المُراهقات، ووعيًا بأنّ بناتهنّ المُراهقات لا يحتملْنَ المزيد من الضغوط، فالخوف والبقاء في الغرفة كلّ الوقت وحده يكفي. أمّا الفتيات اللّواتي نزحن إلى بيوت عائلات مستضيفة، فقد كنَّ يشعرن بالخجل من عدم المساعدة في مهامٍّ التنظيف والطهو اليوميّة، مثلما أكّدت مريم (17 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الأولى)، أمّا شذا (15 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثانية) فقالت إنّ أمّها كانت تحثّها على مساعدة قريباتها، لأنّها اعتبرت أنّ وجودهنَّ ليس بصفة ضيوف، بل بصفة نازحين وعليهنَّ تقاسم أعباء الأعمال المنزليّة اليوميّة من باب الامتنان لهم لاستضافتهم في بيتهم. أمّا الموضوع بالنسبة إلى النازحات مع عائلاتهن إلى الشقق السكنيّة المستأجرة فقد اختلف الأمر،

حيث تلاشى عامل الخجل والإحراج من الطرف المستضيف. فأصبح الجميع سواسية لا مستضيف ولا ضيف وبالتالي كان هناك تقسيم للأدوار وكلّ كان مسؤولًا عن عائلته، وهو ما أشارت إليه رهف (16 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة) «لم يوجد في الشقّة أعباء جديدة، والمسؤوليّات لم تتغيَّر فلقد أوكلت إليّ المسؤوليّات نفسها، وربّما بدرجةٍ أخفّ كتلك التي اعتدتُ القيامَ بها في منزلي».

السياق الثقافيّ والاجتماعيّ للتعبير عن المخاوف

كان لافتا جدًّا وواضحًا خلال حلقات النقاش كلّها أنّ الفتيات لم يحظيْنَ مسبقًا بفرصةِ معالجة مشاعرِهِنَّ أو حتّى التعافي منها، وربّما أكثر من ذلك لم تتوافر لهنّ فرصة التعبير عن مشاعرهنّ التي رافقتهنّ في أثناء فترة الحرب والنزوح مع الآخرين. فبدت حلقات النقاش إلى حدٍّ ما، كأنّها مساحة آمنة أو حلقة تعافي من هذه المشاعر healing circles، فكانت أجوبة المُراهقات والفتيات تحوم دومًا حول مشاعر الخوف والرعب والهشاشة التي أصابتهنّ خلال فترة النزوح في الحرب الأخيرة، وقد تحدثّنَ عن كيفيّة اختلاف هذه المشاعر من تجارب الحروب السابقة التي كنَّ فيها طفلات وتجربة الحرب الأخيرة التي اختبرْنَها وهنّ مراهقات. بالنسبة إلى شذا (حلقة النقاش المركَّز الثانية) فخلال نزوحها عام 2014 لم تكن تدرك هول ما حدث آنذاك، ولم تخف خوفًا شديدًا كما حصل معها عام 2021 فهي الآن بحسب تعبيرها أكثر وعيًا، وتتابع مواقع التواصل الاجتماعيّ، وتُشاهِد الفيديوهات، وتقرأ الأخبار أو تسمعها وأصبحت تدرك معنى الخوف والموت معًا.

تتموضع مسارات الصحّة العقليّة أو النفسيّة للمراهقات والمراهقين في أماكن النزوح أو اللّجوء ضمن سياقات ثقافيّة واجتماعيّة معيَّنة، وهناك اتفاق بين الباحثين على أنّ هذه المسارات موجودة ومهمّة، ولكن «لا يوجد اتفاق على كيفيّة تفكيك: السياق (context) أو السياق الثقافيّ (cultural context)[22].

(22) Ria Reis, Mathilde R. Crone, and Lidewyde H. Berckmoes, «Unpacking Context and Culture in Mental Health Pathways of Child and Adolescent Refugees», *in Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health*. Edited by Suzan J.song & peter Ventevogel (Switzerland: Springer International Publishing, 2020), 37.

فلا شكّ أنّ الأطفال والمراهقين ينشؤون بالتفاعل مع السياقات التي تحيط بهم، خصوصًا في منطقة كقطاع غّزة، حيث للسياقات الثقافيّة والاجتماعيّة سلطة على المُجتمع والنشأة والعامل الجندريّ مرتبط بها بشكلٍ وثيقٍ إن كان على مستوى الأدوار أو التوقُّعات التي تُسنَد إلى الإناث المُراهقات.

حاول بعض الباحثين فكفكة هذه السياقات من خلال محدَّدات قادرة على القياس الكميّ. على سبيل المثال، لفهم كيفيّة تأثير سياق الحرب على الصحّة العقليّة للأطفال، كان يؤخَذ بعَين الاعتبار عدد الأحداث الصادمة التي تمّ التعرُّض لها، ومقدار التعرُّض لها. إلّا أنّ الباحثين النوعيّين جادلوا بأنّ تأثير الصحّة العقليّة للعيش في سياق الحرب لا يمكن فهمه إلّا من خلال التحقيق في جميع الأبعاد السياقيّة ـ البيئيّة والتاريخيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة ـ التي تُشكِّل تجارب الأطفال ورفاههم العقليّ، بما في ذلك وجهات نظرهم الخاصّة[23].

لقد أتاحت حلقات النقاش المركَّز تحرّي وجهات نظر المُراهقات الخاصَّة، وتمّ التركيز على فكفكة السياق الاجتماعيّ ـ الجندري بما يتعلَّق بالصحّة العقليّة وتحديدًا المشاعر، والتأقلم مع الواقع الجديد، والمرونة النفسيّة لدى المُراهقات. وتمّ اعتماد الباراديغم البيئيّ Ecological paradigm الذي يُصوِّر «السياق» باعتباره «مكوِّنًا لعمليّة ديناميّة تتضمّن تفاعلات بين قدرات المراهق/ة الفرديّة من ناحية والبيئة التي ينغمس فيها»[24]. في هذا الباراديغم «فإنّ السياق الثقافي» ليس نظامًا لديه وظائف محدَّدة بجانب الأنظمة الأخرى، ولكنّه يتفوَّق على جميع مستويات النظام الأخـرى»[25]. هذا التفوُّق للسياق الثقافيّ الاجتماعيّ ظهر جليًّا في حلقات النقاش المركَّز الثلاث، حيث أشارت المُراهقات إلى وجود قيود رافقت تعبيرهنَّ عن مشاعرهنَّ. هذه القيود فرضها الأهل وأفراد العائلة أحيانًا على المُراهقات، وأحيانًا أخرى فرضتها المُراهقات على أنفسهنَّ. وقد أظهر النقاش في الحلقات كلّها أنّ هذه القيود المفروضة باللّين حينًا وبالشدّة أحيانًا مرتبطة بالأعراف الاجتماعيّة وموروثات تتعلّق بالمفاهيم الجندريّة للنساء. على سبيل المثال، لم تكُن هبة

(23) المرجع نفسه.
(24) االمرجع السابق، ص 38.
(25) المرجع نفسه.

(هبة 17 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة)، التي نزحت إلى إحدى مَدارِس الأونروا قادرة على البكاء، على الرّغم من حاجتها إلى ذلك، واضطرّت إلى إخفاء مشاعرها ورغبتها بالبكاء بسبب وجود غرباء كانوا يتقاسمون الغرفة مع عائلتها. أمّا أماني (14 عامًا ـ حلقة النقاش الثانية) فعانت من التعبير عن شعورها بالغضب، خصوصًا لدى حدوث شجارات مع أفراد العائلة، حيث كانت تطلب أمُّها دومًا منها أن تصبر وتكظم غيظها «فالوقت غير مناسب لأيّ مشاكل مع الآخرين» بحسب تعبيرها. أمّا سناء وعلى الرّغم من صغر سنِّها، إذ تبلغ 12 عامًا فقط (حلقة النقاش الأولى)، وصفت نفسها بالهادئة وكانت تتلافى المشكلات أغلب الأوقات، إلاّ أنّها لم تكن قادرة على تمالك نفسها في أثناء لحظات القصف وكانت تصرخ بصوتٍ عالٍ من الخوف، لكنّ أخاها طلب منها عدم الصراخ بصوتٍ عال فبرأيه «لا داعي للصراخ. فهي ليست في المنزل». تُشير هذه الرقابة الشديدة على التعبير عن الخوف والرعب والهلع إلى سياق ثقافي مسيطر على المُراهقات النازحات في قطاع غزّة، إذ تفرض العادات والتقاليد والموروثات على سناء الطفلة ذات الـ12 عامًا وغيرها من الفتيات موضعة صحتهنّ العقليّة في مسارات يُحدِّدها العيب والمسموح والممنوع للفتيات. فالصراخ في أثناء القصف الشديد مسموح في المنزل وغير مسموح في مكان النزوح. وخلصنا إلى أنّ الفتيات الأكبر سنًا مثل (هبة 17 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة) تفاعلنَ مع هذا السياق بشكل مختلف، بوضعهنَّ لأنفسهن رقابة ذاتيّة على التعبير عن المشاعر، وتموضعن طوعًا بما هو سائد وربّما يعود ذلك إلى وعيهنّ في أثناء تجارب النزوح السابقة.

الضغوط النفسيّة والتعبير عن المشاعر

يعاني المراهقون/ات من الرجوع إلى حياتهم الطبيعيّة التي كانوا يعيشونها قبل الحرب، إذ إنّ النِّزاعات المسلّحة تُعطِّل العديد من جوانب علاقات الطفولة حيث يشعر الفتيان والفتيات «بانهيار النظم المُجتمعيّة التي يتردَّد صداها طوال حياتهم، ويفقد مقدِّمو الرعاية سُبُلَ عيشهم وشعورهم بالأمان ويضطرّون إلى الانتقال إلى أُسَرٍ أكثر اكتظاظًا بحثًا عن مأوى جديد»[26]. ولا شكّ في أنّ التعامل مع تداعيات النِّزاعات المسلّحة يُعدّ «أحد

(26) Song, S. J., & Ventevogel, P.. *Child, Adolescent and Family Refugee Mental Health* (Switzerland, Springer International Publishing, 2020), 20-21.

أبرز التحدِّيات التي تُواجِه الأُسَرَ بما فيها الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، وعليهم إدارة مشاعرهم حول موت أحبائهم وتدمير منازلهم وشعورهم بالعجز لحماية من يُحبّونهم وعدم قدرتهم على توفير الاحتياجات الأساسيّة لأسرهم ممّا يجعلهم تحت ضغط نفسيّ شديد»[27].

فقد تحدَّثت المُراهقات عن إدراكهنَّ المعنى الحقيقي للموت وقد أصبحنَ يخشينَ على ذويهنَّ وأقاربهنَّ من الموت. عبّرت سمر (17 عامًا ـ حلقة النقاش الثالثة) عن شعورها بالقلق طوال الوقت، قائلة «كنتُ أخاف أن يستشهد جميعُ مَن في المنزل وأبقى لوحدي، لقد كان هاجسًا لا يُفارِقني. وقد وافقها الرأي مريم وسماح (حلقة النقاش المركَّز الأولى) اللّتان كانتا تُتابِعان باستمرارٍ كيف أنّ آلة الحرب حصدت عائلات بأكملها، من بينها عائلات تركت وراءها أطفالًا وحيدين من دون مُعيل، وهذا ما زرع الرعب والقلق في نفوسهنّ.

تنوَّعت مصادر الخوف لدى المُراهقات النازحات، ولم تنحصر في شدّة القصف فحسب، بل كان مكان النزوح إحدى مصادر الشعور بعدم الأمان أيضًا، ومصدرًا لمخاوف ترتبط بالمكان نفسه. أجمعت المُراهقات اللّواتي نزحنَ إلى الشقق السكنيّة أنّ خوفهنّ الأكبر تمثّل في لحظة الانتقال من بيوتهنَّ إلى نقطة النزوح. هذه المسافة اعتبرتها الأغلبيّة العظمى من الفتيات اللّواتي شاركنَ في حلقة النقاش الأولى بمثابة الجحيم. فقد كنَّ يخفْنَ من أن يتمَّ قصف السيّارة، أو مكان قريب من مكان تنقّل السيّارة. عبَّرت شيماء (14 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الأولى) عن هذه اللّحظة بالقول: «كنتُ أشعر بالأمان أكثر عندما أكون تحت سقف منزل، لا في سيّارة أو مكان مكشوف». أمّا إيمان (14 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الأولى) فاعتبرت أنّ فكرة تنقلهم خلال الحرب كانت مرعبة قائلة «لا يوجد مكان آمن فالبقاء حيث نحن أقلّ رعبًا». بدوره، انسحب خوف المُراهقات على أفراد العائلة الذين كانوا يخرجون لتأمين الحاجيات اليوميّة، فقد كانت هدى (13 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة) التي نزحت مع عائلتها إلى شقَّة سكنيّة مستأجرة ترتعب، بحسب تعبيرها، عندما يضطرّ والدها أو خالها للخروج من أجل تأمين احتياجات

(27) Nader Said-Foqahaa, *The Imperative of mainstreaming gender In humanitarian action In Palestine: six case studies from* (Gaza: UN WOMEN. May 2020), 6-7.

العائلات التي كانت معهم في الشقّة. أمّا رهف (16 عامًا ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة)، التي نزحت أيضًا إلى شقّة سكنيّة مع عائلتها، فرأت أنّ الرعب الحقيقي بالنسبة إليها كان محيط الشقّة نفسها «كنت أخاف وجود مكان أو شخص مستهدف في المبنى نفسه أو في جواره فيتمّ قصفها بالكامل، كانت الفكرة تطاردني كلّ الوقت».

وعبّرت المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى المَدارِس عن اطمئنانهنّ كونهنّ في مكانٍ تابعٍ للأُمم المتّحدة، وشعرْنَ بالأمان أكثر من غيرهنّ، كما أسلفنا في القسم السابق، لكنّ الخوف تجلّى بقلقهنَّ من طول مدّة النزوح في المدرسة. أمّا بالنسبة إلى المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى عائلاتٍ مستضيفة، فلم يكُن هناك خوف مرتبط بالمكان، فالناس مألوفون والمكان مألوف أيضًا.

المُراهقات والعناية بالنظافة الشخصيّة

برزت من بين التحدِّيات التي واجهتها المُراهقات اللّواتي نزحنَ إلى مَدارِس الأونروا مسألة النظافة الشخصيّة، وخصوصًا تحدِّيات استخدام دورات المياه العامّة في المَدارِس التابعة لوكالة الغوث وتشغيل اللّاجئين» أونروا». طغى موضوع النظافة على الشعور بالخوف عند ندى (16 عامًا) وأختها الأصغر عبير (12 عامًا)، حيث انتقلتا مع أسرتهنَّ ثالث أيّام الحرب إلى المدرسة بعد أن تمّ قصف المنزل الملاصق لمنزل أقاربهنّ حيث نزحن في بداية العدوان. قالت ندى (حلقة النقاش المركَّز الأولى)، إنّه كلّما «أردنا الاستحمام كنّا نذهب مع أبي إلى بيت خالتي القريب من المدرسة، لأنّ دورة المياه في المدرسة لا يوجد فيها خصوصيّة للاستحمام كفتاة كما أنّها ليست نظيفة». وقد أشارت الأُمم المتّحدة في تقريرٍ لها أنّ تدمير مرافق الاغتسال والمراحيض في الملاجئ أو الاعتماد على المرافق المشتركة من شأنه أن يولِّدَ مشكلات تتعلّق بالخصوصيّة والسلامة[28]، ما يُجبِر النساء والفتيات على البحث عن بديل فيضطررن إلى المشي لمسافات طويلة لاستخدام المراحيض والأغلبيّة قد يخترنَ الانتظار حتّى حلول الظلام ما يجعلهنّ عرضة للمُضايقة[29].

(28) Ibid.p:29.
(29) Gressmann, Wolfgang, ibid (2016), 40-41.

كما برزت لدى المُراهقات هواجس تتعلّق بخصوصيَّتهنَّ فسارة (13 عامًا) وابنة عمّها منى (14 عامًا) من اللّواتي شاركنَ في (حلقة النقاش المركَّز الأولى) أعربتا عن هواجسهما قبل الحرب تجاه النزوح إلى المَدارِس، حيث لطالما خشيتا الاضطرار للنزوح للمدرسة والتخلّي عن خصوصيّاتهنّ ومع ذلك فقد أجبرتا مع عائلتيهما إلى النزوح للمدرسة بعد قصف أحد الأهداف القريبة من منزل أسرتيهما وتضرّر المنزل وأصيب عدد من أفراد العائلة، تقول سارة «هربنا حفاة الأقدام، وشعرنا أنّ المدرسة جنّة أمام الرعب الذي عشناه». من جهتها علّقت منى بالقول إنّها لم تكن تتمنّى أن تترك منزلها لتعيش في المدرسة لكنّ الخوف والبحث عن الأمان دفعها وعائلتها للمكوث نحو أسبوع فيها. في البدء لم تكترث منى إلى مسألة الحمّامات في المدرسة لكن مع مرور الوقت أصبحت من التحدِّيات الكبيرة بالنسبة إليها، نظرًا لقلّة عدد الحمّامات مقابل العدد الكبير من النازحين. كما أنّها لفتت إلى أنّها لم تكن تستطيع استخدام الحمّام عند الحاجة، إنّما كانت تنتظر فترة المساء المتأخِّر لتستخدمه حين يكون أغلب النازحين نائمين. توافقها بالرأي سارة التي كانت تذهب مع منى إلى الحمّام لتقف لها عند الباب خشية أن يأتِيَ أحدهم. أمّا فرح (11 عامًا) (مجموعة النقاش المركَّز الثانية)، فقالتْ «إنّه طفح الكيلُ مع الأطفال الصغار كانوا يستخدمون الحمّام ويتركونه مُتَّسِخًا ولا أحدَ يكترثُ من العائلات، لكنَ خالتها ذات الشخصيّة القويّة تدخَّلتْ وأجبرت العائلات على تنظيم عمليّة تنظيف الحمّامات ما سَهَّل الأمرَ لاحقًا.

اختلف موضوع نظافة الحمّامات من حيث الأهميَّة بالنسبة إلى مَنْ نزحوا إلى بيوت عائلات مستضيفة أو شقق مستأجرة. تقول لين (13 عامًا) التي نزحت إلى بيت خالها إنّها لم تشعر أبدًا بالانزعاج في حال أرادت استخدام الحمّام وأنّها معتادة على القدوم إلى بيتهم في الأوقات العاديّة، وكانت هي وابنة خالها الكبرى مسؤولتين عن تنظيف الحمّامات والبالغ عددها ثلاثة حمّامات. كان الأمر مماثلًا بالنسبة إلى إيمان (14 عامًا) وأختها أسيل (13 عاماً) اللّتين نزحتا مع أسرتيهما إلى شقّة سكنيّة مُستأجَرة مع أقارب آخرين لهما، حيث تمّ توزيع الأدوار منذ البداية على العائلات من حيث النظافة والمُهمّات اليوميّة الأخرى.

ظهر تحدّ ثانٍ متعلِّق بالنظافة الشخصيّة لدى المُراهقات المشاركات في الدراسة حيث ذكرت هبة (17 عاماً) (حلقة النقاش المركَّز الثالثة)، التي نزحت إلى مدرسة من مَدارِس الأونروا مع عائلتها، أنّها عند وصولها إلى المدرسة كانت في أوّل أيّام الدورة الشهريّة، عدا عن الألم المصاحب لها كانت هبة تخجل من التخلُّص من الفُوَط الصحيّة في الحمّامات العامّة، الأمر الذي عانت منه أيضاً أسيل 13 عاماً (حلقة النقاش المركَّز 3)، التي نزحت إلى شقّة سكنيّة مُستأجَرة مع أقارب العائلة والتي بدورها كانت تخجل من موضوع تخلُّصها من الفوط الصحيّة لأنّ الحمّامات كانت تستخدم من قبل الجميع في الشقّة بمَن فيهم الذكور.

المُراهقات ومُشكلات النوم

عانت المُراهقات أيضاً من النوم المتقطِّع وغير المريح؛ عمومًا فأغلبيّة المشاركات كنّ يستيقظن كثيراً بسبب القصف الذي يشتدّ ليلاً وهذه كانت سياسة الاحتلال الإسرائيليّ لترويع المدنيّين في قطاع غزّة. لكن هناك فروقات عديدة بين مَن نزحوا إلى مَدارِس الأونروا والشقق المستأجرة والعائلات المستضيفة. بالنسبة إلى الشقق كانت الليالي الأولى صعبة للتأقلم مع النوم، مكان جديد وقصف شديد، حيث يخاف معظم النازحين إلى الشقق المستأجرة من البيوت المجاورة لهم، هل هي أهداف للجيش الإسرائيلي؟ فدائماً ما كان يتردّد هذا السؤال في أذهانهم خوفاً من أن يتمّ قصف الأماكن المجاورة لشقتهم، وهو ما عبرت عنه رهف (16 عاماً) وهدى (13 عاماً) في حلقة النقاش المركَّز الأولى ونغم (15 عاماً) من حلقة النقاش المركَّز الثانية.

أمّا النازحات إلى المَدارِس فقد عانَيْنَ الأمرَّين في النوم، فالغرفة كانت تحوي أكثر من عائلة وفيها أطفال صغار لا ينامون بسبب اكتظاظ المكان والأصوات العالية، وكان أغلب النازحين يسهرون إلى ساعات متأخِّرة من الليل. عبَّرت المُراهقات خلال حلقات النقاش المركَّز الثلاث عن معاناتهنّ مع النوم، إذ قالت لجين (15 عاماً) في حلقة النقاش المركَّز الثالثة: «ما كنتُ آخذ راحتي بالنوم قدّام ناس غريبة». أمّا فرح من حلقة النقاش المركَّز الثانية فقالت: «كنّا عيلتيْن بالغرفة والعيلة التانية كلّها أطفال صغار دايماً بصرخوا». كما ذكرت الفتيات النازحات إلى المَدارِس أنّهنّ كنّ ينمن وهنَّ يلبسن الحجاب لعدم

وجود خصوصيّة في المكان ولتشديد أهاليهم على ضرورة الالتزام بالستر أمام الآخرين، فالمُجتمع الغزّي شعب محافظ، وأغلبيّة نسائه يرتديْنَ الحجاب.

المُراهقات وفقدان الخصوصيّة

تعاني النساء والفتيات عموماً في فترات النزوح من فقدان الخصوصيّة ما يُشكِّل لهنّ تجربة مرهقة كونهنّ إناثاً[30]، كما أنّهنّ في أماكن النزوح أكثر عرضة للعنف القائم على النوع الاجتماعيّ بسبب الافتقار إلى الخصوصيّة والأمن في الملاجئ والمخيَّمات[31].

تجلّى فقدان الخصوصيّة بالحرمان من اختيار ما تلبسه الفتيات من الملابس، وقد حظي بحيّز غير قليل عند جميع الفتيات المشاركات في مجموعات النقاش المركّز الثلاث؛ فقد أجمعن على عدم تمكُّنهنّ من لبس ما يحلو لهنّ من ثياب مريحة أو مكشوفة على الرّغم من ارتفاع درجات الحرارة في ذلك الوقت. كما طُلب من المُراهقات اللّواتي نَزَحْنَ إلى المدارس أن يلتزمْنَ بارتداء الحجاب بشكلٍ دائم حتّى خلال النوم من قِبَلِ عائلاتهنّ؛ حتّى المُراهقات اللّواتي نَزحْنَ إلى عائلاتٍ مُستضيفة كنّ يفعلْنَ الأمر نفسه، أي يرتدينَ ملابس محتشمة خلال النهار باستثناء أنّه كان من المسموح لهنّ خلْع الحجاب في أثناء النوم. أمّا الفتيات اللّواتي نزحْنَ إلى الشقق السكنيّة المُستأجَرة برفقة أقاربهنّ فقد حظينَ بخصوصيّةٍ أكثر بقليل فقط، فلم تكُن المُراهِقة معرَّضة لدخول أيّ شخص غريب إلى المكان الذي تكون فيه وكذلك لم يكُن هناك ضغوط من الأهالي عليهنّ للبْسِ الحجاب بشكلٍ دائم، إلّا أنّ ناهد (17 عاماً ـ حلقة النقاش المركَّز الثالثة) التي نزحت إلى شقّة سكنيّة مُستأجَرة كانت ترتدي الحجاب حتّى خلال النوم بقرارٍ منها خوفاً من أن تضطرّ إلى الهروب ليلًا وأن لا يكون هناك متّسع من الوقت لترتديه.

المُراهقات والعلاقة مع أفراد الأسرة

يُعاني المُراهقون/ات علاقة شائكة مع أهاليهم، وليس خفيًّا أنّ أصعب الأوقات على الأولاد والأهل على حدّ سواء هي فترة المراهقة، فكيف إن كان على المراهقة/ة أن تعيشها في ظلّ حروب وحالة طوارئ مستمرّة؟ وقد لفتت إحدى الدراسات إلى وجود

(30) Said-Foqahaa, Nader, p:36.
(31) Gressmann, Wolfgang, ibid, (2016), 10.

تحدِّيات مشتركة متفاوتة في الدرجات بين الفتيان والفتيات في قطاع غزّة، حيث يعاني كلاهما على حدٍّ سواء، وبخاصّة الذين فقدوا مقدِّمي الرعاية الأساسيين لهم، من نقصٍ عاطفيّ وإهمال من أفراد الأسرة المتبقّين ويبقى الأيتام من الذكور والإناث من بين الفئات الأكثر ضعفاً[32].

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ تجربة النزوح التي تتناولها هذه الورقة تُعدّ تجربة النزوح الثانية لعددٍ كبيرٍ من المُراهقات المُشارِكات في الدراسة الحاليّة والثالثة لبعضهنّ وتحديداً اللّواتي وُلِدن قبل عام 2008 ولكن لا يذكرن كثيراً من تفاصيل تلك الحرب لصغر سنهنّ آنذاك. ولكنْ عموماً هناك تجارب نزوح إضافيّة لهؤلاء المُراهقات اللّواتي كنّ ينتقلْنَ مع عائلاتهنّ موقّتاً إلى بيوت الأقارب البعيدة عن الحدود حيث يعشْن في أيّام التصعيدات المتكرِّرة خوفاً من تأجُّج الحرب. شكّلت هذه التنقُّلات لدى الفتيات خبرة عامّة بالمكان الأكثر ملاءمة لهنّ في حال اضطررنَ إلى النزوح. واللّافت أنّ بعض المُراهقات شاركْنَ أُسرهنّ قرار اختيار مكان النزوح، إذ قالت شذا 15 عاماً خلال مشاركتها في (حلقة النقاش المركَّز الثانية) إنّها أخبرت والدها بميلها للبقاء في بيت جدّها لأنّها ترتاح لوجود بنات عمّها بجوارها ولا تريد النزوح إلى شقّة مُستأجرة لأنّها «تخاف الأماكن الجديدة، وخصوصاً في أثناء الحرب». لكنّ رفاهيّة الاختيار لم تكُن دائماً متوافرة. ففي بعض الأحيان اضطرّت العائلات مرغمة إلى النزوح إلى مَدارِس الأونروا بحثاً عن الأمان. بالنسبة إلى عبير 16 عاماً (حلقة النقاش المركَّز الأولى) التي نزحت إلى المدرسة فالأمان هو فوق كلّ شيء، مع أنّها أكّدت مُعاناتها في الاستحمام والنوم والراحة في الملابس إلّا أنّها كانت مستعدَّة لتحمّل كلّ هذا مقابل شعورها بالأمان والاطمئنان. ووافقتها الرأي أيضاً فرح 12 عاماً (حلقة النقاش الثانية) بأنّ المدرسة أعطتها شعوراً بالأمان، كونها مكانًا لن يقصف، وكان شعوراً ملحّاً بالنسبة إليها وقتها حيث عانت كالجميع من الخوف والرعب. كانت لعبير (12 عاماً) من الحلقة المركَّزة الأولى تجربةٌ مُماثِلة، ففي بادئ نزحتْ إلى بيت خالتها هي والنساء فقط، بينما بقي والدها وأخوتها الذكور في المنزل. هذا التقسيم شائع في غزّة خلال الحروب حيث تنزح النساء إلى شقّة ويبقى الذكور في شققٍ مُنفصلة. بالنسبة إلى عبير والإناث

(32) Nader said-foqahaa, Samer said, *Gender and war in Gaza untangled: what past wars have taught us* (Gaza strip: UN WOMEN, 2021), 14.

الموجودين معها، فقد قرَّرنَ بعد قصف المنزل المُجاوِر لهنّ أن ينزحْنَ إلى المدرسة؛ روت عبير قائلة «تمّ قصف هدف مجاور للمنزل الذي نتواجد فيه وأصابَتنا الشظايا ونحن نائمات، ووجدنا أنفسنا نهرب حافيات لا إراديّاً إلى أقرب مدرسة تابعة للأونروا نبحث فيها عن مأوىً آمن بعد اعتقادنا بأنّ منزل خالتي بعيدٌ عن أيّ قصف». أشارت عبير من خلال تجربتها كيف أنّ النساء أحياناً يقلقْنَ من ردود فعل الذكور في العائلة على أيّ قرار يتّخذنه، إذ أشارت إلى أنّه بعد وصولهنَّ إلى المدرسة «اتّصلنا بأبي لنخبره أنّنا في المدرسة مع عِلمنا المُسبق أنّه لن يعجبه هذا لكنّنا جميعاً كنّا مضطرّين لذلك وكنّا مضطرّين لأخذ القرار بالفرار إلى المدرسة لحين عودة الهدوء ثمّ التفكير بالنزوح إلى مكانٍ آخر.

المُراهقات والتكيُّف مع المكان والواقع الجديد

أظهرت المُراهقات اللّواتي شاركْنَ في الدراسة مرونةً نفسيّة عالية، من ناحية القدرة على التأقلُم السريع مع المكان والواقع الجديد في أوقات النزوح وما بعدها. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّه خلال الحرب الإسرائيليّة على قطاع غزّة في العام 2014، نَزحتْ معظم العائلات الحدوديّة بعد إعلان الجيش الإسرائيلي دخوله البرِّيّ إلى القطاع[33]، حيث نَزَحَ ما يزيد على 485000 شخص منهم 100000 شخص ظلّوا نازحين حتّى بعد انتهاء الحرب. لا شكّ في أنّ هذه التجربة القاسية جَعلت اتّخاذ قرار النزوح بعدها قراراً يتحتّم اتّخاذه بسرعة، وهو ما أيقنه سكّان المناطق الحدوديّة في قطاع غزّة، والذين استطاعوا اتّخاذ قرار النزوح منذ اليوم الأوّل في عدوان أيّار/مايو 2021، من هنا يُمكِننا الْتِماسُ بدء التكيُّف مع واقع النزوح في بلدٍ يرزح تحت الاحتلال والحصار والحروب المُتتالية.

لا يُفارق المُراهقات هاجس وقوع حروب جديدة في المستقبل، منهم نغم (حلقة النقاش المركَّز الثالثة) فهي تفكِّر كيف ستكون الحرب المُقبلة؟ هل سننزح إلى المدرسة؟ وكم سنبقى وكيف سأعيش هناك؟ أسئلة كثيرة تطرحها هذه المراهقة فهل هنّ حقاً قد تكيَّفن مع الواقع الجديد؟

أشارت الإجابات من حلقات النقاش المركَّز الثلاث إلى أنّ المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى بيوت عائلات مستضيفة قد أَلِفْنَ المكان بشكلٍ أسرع وذلك لوجود مُضيفين

(33) Hannah Rought-Brooks, *Gaza: The Impact of Conflict on Women* (Norwegian Refugee Council 2015), 5.

بالأساس الذين هُم أصحاب البيوت والذين عملوا في البداية بعادات استقبال الضيوف والتكافُل الاجتماعيّ الذي يُميِّز الفلسطينيّين في قطاع غّزة. حظِيَت سمر 17 عاماً حلقة النقاش المركَّز الثالثة بمعاملةٍ خاصّة من صاحبة المنزل لكونها مراهقة وتحتاج إلى خصوصيّة معيَّنة. فكانت تنام في غرفة النوم على السرير لا على الأرض مع الصغار. ولأنّ معظم العائلات المُستضيفة كانت من الأقارب، بدتِ العلاقة بين المُراهقات والموجودين سَلِسَة أكثر. فهنّ معتادات على أقاربهنّ وقد نزحْنَ إلى المكان نفسه في السابق.

أمّا المُراهقات اللّواتي نزحْنَ إلى المَدارِس، فكان لهنّ رأي آخر. فالتكيّف مع المكان كان من أصعب الأمور بالنسبة إليهنّ. وَصفتْ منى (14 عاماً ـ حلقة النقاش المركَّز الأولى)، الأسبوع الذي أمضته في المدرسة بالأسوأ في حياتها، فهي لم تعتد النوم مع غرباء في غرفة واحدة، كان الأمر مُقلقاً على حدٍّ تعبيرها. أيضاً لم ترتح لجين (15 عاماً ـ حلقة النقاش المركّز الثالثة) بقضائها الوقت كلّه في مكان لا يشبه المنزل، فهي كانت في غرفة كبيرة لا يوجد فيها سوى بضع فرشات من الإسفنج وعدد من الطاولات على طرفها، كان المكان موحشاً. وفق تعبيرِ لجين لا أحد يريد أن يبقى في مكانٍ كهذا لمدّة طويلة. إلّا أنّ فرح (12 عاماً ـ حلقة النقاش المركَّز الثانية)، وَجدت لنفسها مَخرجاً فقد كانت معظم الوقت تتحدّث مع صديقاتها وقريباتها على تطبيق واتساب باحثةً عن الألفة لأنّ الصفّ الذي كانت فيه خلال نزوحها إلى المدرسة لا يوجد فيه مراهقات أو فتيات في مثل عمرها.

على مستوى التكيّف مع المكان والواقع الجديدين، لم تختلف تجربة المُراهقات اللّواتي نزحن إلى الشقق السكنيّة المستأجرة كثيراً عن اللّواتي نزحن إلى عائلات مستضيفة، فالتأقلم مع النازحين معهم كان سهلًا لأنّ معظمهم من الأقارب، بينما كان صعباً التأقلم مع المكان ولم يحصل ذلك سريعاً. وصفت نور (12 عاماً ـ حلقة النقاش الثانية)، هذه الحالة: «أكره ذكرياتي في تلك الشقّة، كان المكان مزدحماً جدّاً ولا يوجد أثاث إلّا الفرشات التي أحضرناها معنا عندما نزحنا، لقد كان المكان مخيفاً».

وفي حين تميل المُراهقات لإبقاء مَدارِس الأونروا آخر خيارٍ للنزوح، وضعتها مراهقات أخريات مثل لجين 15 عاماً وهبة 17 عاماً (حلقة النقاش المركَّز الثالثة)

كأوّل خيار، إذ تفضِّلان في المرّة القادمة في حال نشوب حرب مع إسرائيل الذهاب في الحال إلى المدرسة مع أنّها لم تكُن المكان المثالي لمكوثهما فترة الحرب. لكنّ الشعور بالأمان شعور لا يوصف في أوقات الخوف على حدٍّ تعبيرهما. أمّا بعض الفتيات فعبَّرْنَ عن انزعاجهنّ من فكرة النزوح حتّى إلى بيوت عائلات مستضيفة، ومنهم أماني (14 عاماً) التي شاركت في حلقة النقاش المركّز الثانية، والتي أرادت العودة إلى منزلها الحدوديّ خلال الحرب لكنّ العائلة لم توافق. لم تشعرْ أماني بالراحة في مكان نزوحها، وأضافت أنّ طول مدّة النزوح جعلتها تشعر بعدم الاكتراث للقصف المشدَّد والمُخيف، وكلّ ما كانت تريده هو الإحساس بالراحة والخصوصيّة، وهو ما طغى على حاجتها إلى الشعور بالأمان، لذلك عبَّرت عن رغبتها بعدم النزوح من منزلها في المستقبل بحال شُنَّت حرب جديدة على قطاع غزّة. أخضعت معظم المُراهقات المشاركات تجربة نزوحهنّ لما يُشبِه إعادة التقييم، وتوقَّعنَ أنّها لن تكون تجربتهنّ الأخيرة، فهنّ عشْنها كأطفال، وكمراهقات، ومنهنّ مَن توقَّعنَ أن يعشْنها كبالغاتٍ وربّما كزوجاتٍ وأمّهاتٍ في المستقبل.

خلاصات

من خلال تحليل حلقات النقاش الثلاث، لم نرَ ارتفاعاً ملحوظاً في مستوى الهشاشة لدى المُراهقات في قطاع غزّة، ولا ارتباطاً وتقاطعاً لهذه الهشاشة مع الحروب السابقة فحسب. بل ظهر من خلال الإجابات أنّه تمّ بناء نظامٍ صلبٍ من الهشاشة فُرض على الفتيات، مبنيّ على عوامل عدّة[34]:

أوّلاً: أثَّرت الأعراف والمعايير الاجتماعيّة على تصرُّفات الفتيات ومَواقفهنّ وعلى فهمهنّ للتحدِّيات التي واجهتهنّ. فقد أظهرْنَ ميلًا لقبول ما كان يُطلَب منهنّ من الذكور

(34) تمّ استلهام بعض هذه العوامل من كتيّب أو «**أداة تقييم مَخاطِر في حوادث العنف الأسريّ المعروف**» بـ«**B-SAFER**» الذي تستخدمه بعض المنظّمات الكنديّة أثناء الاستجابة للتبليغ عن حوادث عنف أسريّ من طرف الشريك الحميم. الأداة عبارة عن 15 سؤالاً تساعد المُستجيب على تقييم مستوى الخطر الذي تتعرّض له الضحيّة، واللّافت أنّ قسماً من الأسئلة يركّز على عوامل الهشاشة لدى الضحايا.

Stephen D. Hart, and Henrik Belfrage. *led to the development of the Brief Spousal Assault Form for the Evaluation of Risk* (**Canada: B-SAFER,** Department of Justice Canada, the British Columbia Institute Against Family Violence (BCIFV), 2004.

في العائلة في أثناء فترة النزوح كعدم الضحك، أو الصراخ، أو الالتزام بالحجاب وعدم الخروج إلى باحة المدرسة في أثناء النزوح. تتقاطع هذه المواقف والتصرُّفات مع اتِّخاذ المُراهقات إجراءات للحماية الذاتيّة من خلال (تقليل أثر العنف والاستهانة به، قبوله على أنّه أمرٌ طبيعيّ، ومن خلال التصرُّف بناء على ما يتوافق مع المُعتقدات الاجتماعيّة والثقافيّة السائدة).

ثانياً: من عوامل الهشاشة أيضاً ثمّة الخوف الشديد، وقد تنوَّعت مصادر الخوف بالنسبة إلى الفتيات، فأوّلًا كنّ يخفنَ الحرب، وكذلك فقدان عالَمهنّ أو عائلاتهن، وقد أشرْنَ إلى خوفهنّ من ذكور العائلة بخصوص ما يَقُمْنَ به. وبغضّ النظر عمّا إذا كان هذا الخوف منطقيّاً أم لا، فإنّ هذا العامل يُحتسب كعامل إضافيّ يُسبِّب أو يَخلق هشاشةً لدى هؤلاء المُراهقات.

ثالثاً: عدم وجود مصادر للدعم، وخصوصاً لهؤلاء الفتيات المُراهقات، على المستوى النفسيّ والصحّيّ... إلخ. وحتّى لو وُجِدَت هذه المصادر قد لا تتمكَّن المُراهقات من الوصول إليها أحياناً بسبب الفروق الجندريّة أو المعايير الاجتماعيّة أو ثقافة العيب. فهنا علينا أن نتنبّه إلى أنّ وجود المصادر لا يعني بالضرورة أنّ المُراهقات يمكنهنّ الولوج إليها والاستفادة منها.

ومن عوامل الهشاشة أيضاً «العيش في أماكن غير آمنة»، وهو ما صرَّحت عنه الفتيات من خلال التعبير عن شعورهنّ بعدم الأمان في أماكن النزوح، وبشكلٍ عامٍّ بسبب تتالي الحروب على غزّة، وحتّى عيشهنّ في مناطق حدوديّة تتخلّلها تصعيدات عسكريّة غير الحروب الكبرى ويضطررْنَ للنزوح في أثنائها مع عائلاتهنّ. كما أنّ «المشكلات الصحيّة» قد تكون عاملًا إضافيّاً لهشاشة هؤلاء المُراهقات، وعلى الرّغم من أنّه لم تبلِّغ أيٌّ منهنّ خلال حلقات النقاش عن أيّ مشكلات جسديّة، ولكن في أثناء التحدّث عن الصحَّة النفسيّة أظهرت المُراهقات أنّ عامل الهشاشة مُرتبطٌ بشكلٍ كبير بالقدرة عن التعبير على المَشاعر.

وقد وجدنا أنّ عوامل الهشاشة هذه مرتبطة ببعض العوامل أو التعقيدات الثقافيّة[35]:

(35) Randall Kropp, Henrik Belfrage, and Stephen Hart. *Patriarch,* V2 (Sweden). March 2021.

1 ـ Masculine[36] أو الذكوريّة وترتبط بسلطة الذكور وسيطرتهم على القرار، خصوصاً في ما يتعلّق بما هو ممنوع أو مسموح للمراهقات في أثناء فترة النزوح.

2 ـ Hierarchical أي الهرميّة أو تقبُّل عدم المساواة بين الجنسيّن الذكور والإناث، وهو ما أظهرته المُراهقات من خلال مَيلهنّ لتقبل الفوارق الجندريّة في أثناء النزوح.

3 ـ Traditional وهنا العامل التقليديّ يدعو إلى تمجيد الماضي على حساب التأقلُم والتكيُّف، هذا العامل كانت له خصوصيّته مع المُراهقات اللّواتي استطعْنَ أن يبنيْنَ مرونةً نفسيّة وقدرةً على التكيُّف والتأقلُم، وتحدّي بعض الأفكار التقليديّة المرتبطة بتمجيد الانتصارات السابقة فحسب، من دون النظر إلى تأثيراتها النفسيّة فيهنّ.

4 ـ Collective العامل الجماعيّ هنا يرتبط بتقديم حاجات المجموعة على حاجات الفرد نفسه. وقد عبَّرت الفتيات أنَّهنَّ كنَّ بحاجة إلى ملاحظة فردانيَّتهنّ أكثر خلال فترة النزوح، وخصوصاً أنّهنّ يَعبُرنَ إلى مرحلة المُراهَقة. بعض الفتيات بلّغنَ أنَ أمهاتهنّ كنّ حريصات على تفهّمهنّ في أثناء فترة النزوح أكثر من باقي أفراد العائلة.

5 ـ Restrained التقييد أي تقديم السيطرة على حاجات الشخص الأساسيّة ورغباته، فعلى سبيل المثال كانت الفتيات بحاجة إلى استنشاق الهواء أو الصراخ عند الخوف أو البكاء أو الضحك، فكانت تُطغى السيطرة الذكوريَّة على هذه الحاجات الأساسيّة، وهنا لسنا بمعرض تقييم أداء الأهل في أثناء فترة النزوح، أكثر من تفكيك كيف أنّ العامل الثقافيّ والمعايير المُجتمعيّة تنسج نظامًا من الهشاشة حول المُراهقات.

(36) هذه اللّائحة هي من دليل تقييم آخر لمخاطر العنف الأسري بعنوان «**البطريرك**» وهي النسخة الثانية المنقّحة من هذا الدليل المذكور أعلاه. اللّائحة الأصليّة تضمّ ستّة أبعاد ثقافيّة قد تؤثّر على العنف ضدّ المرأة، استُخدم في الخلاصات خمسة منها.

ملحق

حلقة النقاش المركَّز الأولى بتاريخ: 2021/07/31

تمّ استخدام الاسم الحقيقيّ الأوّل في البحث	العمر	مكان النزوح
ندى	16	مَدارِس
عبير	12	مَدارِس
سارة	13	مَدارِس
منى	14	مَدارِس
لمى	15	عائلات مُستضيفة
ألين	13	عائلات مُستضيفة
مريم	17	عائلات مُستضيفة
سماح	16	عائلات مُستضيفة
إيمان	14	شقّة
شيماء	14	شقّة
بتول	15	شقّة
سناء	12	شقّة
أسيل	13	شقّة

حلقة النقاش المركَّز الثانية بتاريخ:2021/7/31

تمّ استخدامُ الاسم الحقيقيّ الأوّل في البحث	العمر	مكان النزوح
فرح	12	مَدارِس
شذا	15	عائلات مُستضيفة
أماني	14	عائلات مُستضيفة
نور	12	شقّة
نغم	15	شقّة

حلقة النقاش المركّز الثالثة بتاريخ: 2021/8/5

تمّ استخدامُ الاسم الحقيقيّ الأوّل في البحث	العمر	مكان النزوح
هبة	17	مَدارِس
لجين	15	مَدارِس
ناهد	17	عائلات مُستضيفة
سمر	17	عائلات مُستضيفة
هدى	13	شقّة

عن حياة مُراهقات قَلَبَتْها الحربُ وغيَّرها اللّجوء والتهجير

سعدى علوه

لم يكُن هناك بصيص نور عندما تَركتْ سحر «كونتينر» الحديد الذي جَعَلَهُ المهرِّبُ سَكَنَها مع خمس مُراهقات أخريات على الحدود السوريّة التركيّة[1]. طلبت ابنة الـ 16 عاماً من صديقتها أن ترافقها إلى المرحاض الذي يبعد عن المنامة نحو مئة متر. انتظرت الفتيات الثلاث عودةَ سحر وصديقتها لأكثر من 10 دقائق إلى أن رجعت الأخيرة لاهئة: «المهرِّب اغتصب سحر واعتدى عليها». لم تتجرّأ أيٌّ منهنّ على الذَّهاب لاستطلاع ما حدث مع رفيقة درب التهريب خوفًا من تعرضهنّ للاعتداء نفسه، فهنّ وحيدات عاجزات، دفعت عائلاتهنّ نحو 3000 يورو أو دولار للمُهرِّب كي يقطع بهنّ الحدود إلى تركيا ومنها عبر البحر إلى اليونان كمحطّة أولى نحو أوروبّا. صديقة سحر نفسها هربت قبل أن يَعلم المُغتصِب أنّها شاهدت جريمته، جلستْ على الأرض تبكي عجزَها عن إنقاذها، وحتّى عن رفْعِ صوتها طالبةً النجدة «خفت يغتصبني كمان». كانت سحر تسعى للِّحاق بوالدها في ألمانيا، ولكنّ أحداً لم يعرف كيف انتهت رحلتها ومعها قصّتها. ولا أحد يعرف عدد المُراهقات أو النساء اللّواتي لقينَ

(1) وقعت هذه الحادثة في صيف العام 2016.

المصيرَ نفسه وهنّ يهربْنَ فرارًا من الحرب وأهوالها نحو بلادٍ تؤمِّن لهنّ الحدَّ الأدنى من حقوقهنّ ومعها حقهنَّ بالحياة.

هذه الحادثة روتها ياسمين لنا (16 عاماً) في مقرّ إقامتها حاليّاً في مدينة لايبزيغ الألمانيّة[2]. تقول إنّها وفور وقوع جريمة الاغتصاب اتَّصلت بعمّها الذي كان على علاقة جيِّدة مع رجال الحدود وأخبرته بما حدث. اتَّصل الأخير بالمهرِّب وهدَّده «هلأ بتقطع الحدود بياسمين ورفيقتها أو ما بيطلع عليك الضو». وفعلًا دقائق ونادى المهرِّب المُغتصِب على ياسمين وصديقتها وقطع بهما الحدود ليلًا من دون الفتيات الأخريات اللّواتي التقيتا بهنّ بالصدفة في مقرّ التهريب. ما زال صوت ياسمين لغاية اليوم، وبعد مرور أكثر من 3 سنوات على الحادثة، يرتجف وتلهث وتعود دقّات القلب السريعة تضرب في صدرها «كتير تعذّبنا بس ما حكينا ولا كلمة، وحتّى ما خلّيناه يعرف أنّو نحن عارفين بجريمته». وحده صوت عمّها الذي بقي يُهاتفها طوال الطريق مَنَحَها بعض الطمأنينة «وإلّا متنا من الخوف». كان يطلب من المهرّب أن يُعلمه بالمسافة التي قَطَعَها بالفتاتَيْن وبمكان تواجدهما لحظة بلحظة، إلى أن سلَّمهما إلى قريبةٍ لهما في تركيا. لم تَعرف ياسمين شيئاً عن سحر الضحيّة «ما بعرف أيّ شي عنها، بس صورتها ما بتروح من راسي، كلّ يوم بفكِّر فيها، كلّ يوم بخاف، كلّ يوم بحسّ قدّيش كنّا عاجزات عن حمايتها أو الوقوف إلى جانبها، وكلّ يوم بسأل حالي إذا كان قرار إرسالنا وحيدات في رحلة التهريب صائباً على الرَّغم مِن أنّي كنت محظوظة ووصلت بالسلامة».

تختلف قصص النساء اللّاجئات، سواء المُراهقات من بينهنّ أم البالغات، وظروفهنّ، وكيفيّة تأثير الحرب على حيواتهنّ. لكلٍّ واحدة رواية مُختلفة في تفاصيلها عن الأخريات، وهي إن تقاطعت ففي صعوبة المسار الذي خضْنه للنجاة من الحرب، ليجدْنَ أنفسهنّ في غربة اللّجوء، والانقطاع عمّا كان، واللّاوضوح في ما سيكون عليه المستقبل. اللّجوء نفسه صاغ لكلٍّ منهنّ حكايةً جديدة تختلف عن حكاية الأخرى. والحياة التي أقفلت أبوابها أمام لاجئة هنا، فتحت نوافذ أمل وتغيير في مستقبل آخر، وقَلبت مُعادلاتٍ في يوميّاتِ وسلوكيّاتِ ثالثة، وفقاً للظروف التي عاندت أو ساعدت كلًّا منهنّ. ولكنهنّ،

(2) أُجريت المُقابلة صيف 2018 ولم تُنشر أبداً قبل هذه الورقة.

ومن دون استثناء، يختزنَّ في دواخلهنَّ الكثير من الخَيبات والأسى والصعوبات. حتّى الناجيات من بينهنّ لم ينفذْنَ من دون أكلافٍ جبّارة.

ونجدُ أنّ المُراهقات يخضْنَ معارك كبيرة لانتزاع حقوقهنَّ بالحريّة والتعليم والتطوُّر وتبلْور شخصيّاتهنّ «يعني نحن منكون مطحونات من الحرب، لكنّ ذلك لا يشفع لنا عند عائلاتنا، إذ نبقى بنظر الأهل والأشقّاء الذكور معرَّضات للخطأ»، يحصل ذلك وفق المفهوم التقليديّ الذي يأسرهنّ تحت ستار الخوف عليهنّ. وكثيرات هنّ المُراهقات والفتيات اللّواتي مُنعْنَ عن الدراسة واستكمال تعليمهنّ العالي بسبب النظرة التقليديّة السائدة للأهل من جهة، والتخوُّف من تأثير المُجتمع اللّاجئ فيهنّ من جهة أخرى «دايمًا في تخوُّف من تفلُّت المرأة من مفاهيم الأسرة والمُجتمع»، وفق ما أكّدت أكثر من لاجئة مُراهِقة أو بالِغة تمّت محاورتهنّ. وأكّد بعض هؤلاء أنّ الانتقال إلى بيئة مختلفة عن بيئة بلد المنشأ عزّز مخاوفَ الأهل من البيئة الغريبة وغيّر في تفكيرهم ودفع معظمهم نحو التشدُّد الذي لم يكُن ملحوظاً بهذه القوّة في سوريا مثلاً، سواء للسوريّات أم للفلسطينيّات اللّواتي لجأن منها إلى أوروبا أو لبنان. ونلمس من تجارب كثيرات كيف استعملتهنّ أسرهنّ مصدرًا لتحسين ظروف الأسرة عبر تزويجهنّ بذريعة حمايتهنّ كإناث، ولكنْ مقابل المال، تحت مُسمّى المَهر، المشروع شرعًا وتقليديّاً.

مَهْرٌ مُقابِل مُغادَرة سوريا

كانت ربى في الـ 14 من عمرها عندما اضطرّت عائلتها لاتِّخاذ القرار بالنزوح من ريف حلب إلى حمص استعداداً لدخول لبنان تهريباً[3]. كان والدها قد زوَّج شقيقتها الكبرى (16 عاماً) قبل 4 أشهر، حين فتحت معها والدتها موضوع النيّة بتزويجها «منأمِّن عليكي وبتبقي مع ابن بلدك»، لتبلِّغَها قرارَ الأب بتزويجها «رح يساعدنا مهرك حتّى نفلّ ع لبنان، ونحن ما منعرف شو ناطرنا، وانت بنت منخاف عليكي». قبضت العائلة 600 دولار مهراً لتزويج ربى. بعد أسبوع على زواجها ومُغادرة أهلها المنطقة التي تسكن فيها، قالت لها والدة زوجها «بتحضري حالك بكرا الصبح تنزلي مع البنات ع الشغل». تشغّل عائلة الزوج بناتها في الزراعة مقابل بدل يومي «كان زوجي يضلّ نايم وأنا روح إشتغل مع

(3) لجأت عائلة ربى من سوريا إلى لبنان في العام 2018، وأجريت المُقابلة مع ربى في خريف العام 2021.

أخواته». عندما تعود من العمل تقبض الأم جناها في حال عدم وجود زوجها في البيت «قلها خليلي شويِّة مصروف، فتجاوبني دفعنا حقّك لأهلك وما اشترولك أيّ أغراض لبيتك، أخدوا كلّ المصاري وراحوا». كانت تستردّ المال الذي دفعوه مهراً لها.

بعد مرور 3 أشهر على زواجها بدأت مشكلات جديدة لأنّها لم تحمل بطفل «وكمان ما بتجيبي اولاد»، لحقتها العبارة كتُهمة. مع بلوغها عامها الخامس عشر وشهرَيْن، وَضعتْ ربى طفلًا ضعيف البنية مريضاً «كنت كلّ فترة حملي أتعرّض للعنف وإشتغل بالحقول». بعدما مات الطفل، وكان عمره شهراً، زادت مصاعبها «أولادك ما بيعيشوا»، صارت تلك العبارة التي يقولها لها زوجها وأمه تلازمها عند كلّ إشكال. «وما قدرت حبَّيته أبداً». تقول عن زوجها لتؤكِّد أنّها بدأت تخطِّط للهروب ممّا أسمته «الجحيم». بعد عام من مُحاولة أمّها ثَنْيها عن طلب الطلاق من زوجها على الرّغم من إخبارها بكلّ ما يحصلُ معها، وافقَ والدها على مُغادرتها منزل زوجها «ما رَح يطلّقك ونحن مو حدِّك». وهكذا منحوا قريبًا لهم 200 دولار لترتيب تهريبها «لاقتني أمّي ع حمص وجابتني ع لبنان».

في عكّار، حيث انضمّت لعائلتها في أحد مخيَّمات السهل، عادت ربى للعمل في الزراعة «أبي بيشغِّلنا نحن وأمي بالمزارع». نسألها عن شقيقاتها الصغيرات اللّواتي تتراوح أعمارهنّ من 11 سنة إلى 14 سنة اليوم، وهنّ ثلاث شقيقات «تنتين بيشتغلوا بالزراعة وواحدة بتساعد زوجة صاحب الأرض ببيتها». لم يرسل والدها أيًّا منهنّ إلى المدرسة «حتّى أنا بعتني دغري ع الشغل». يقبض الأبّ كلّ نتاج العمل، حتّى ذلك المخصَّص للأم «قال بدّه يشتري بيوت لأخوتي الشباب بسوريا». تتراوح أعمار ذكور العائلة ما بين 10 إلى 17 سنة، وكلّهم يعملون في الزراعة «والكبير أوقات بيشتغل بالعتالة».

حظوظٌ أوفر للمُراهقات

مُقارَنةً بين المُراهقات اللّاجئات إلى لبنان وبين اللّواتي سعفهنَّ الحظّ باللّجوء إلى ألمانيا، نلحظ فَرقاً جوهريّاً في فُرَص التطوُّر والتعلُّم. فالعائلة اللّاجئة التي تقبض المال في ألمانيا عن كلّ طفل/ة لا تَجِدُ نفسها مضطرّة لاستجلاب المال عبر أطفالها وبالتالي تشغيلهنّ. كما أنّ القوانين التي تمنع عمل الأطفال في ألمانيا مطبَّقة بشدّة، فيما يُفتقَر ذلك في لبنان. وكذلك نلمس الاكتفاء الاقتصاديّ للّاجئين في الغرب بسبب مساعداتِ

الدولة المُضيفة، بينما يصرّ اللّاجئون في لبنان على عدم تلقّيهم ما يكفي ممّا يضطرّهم للعمل جميعاً «صغارًا وكبارًا» كما تؤكّد ربى «من وين بطعميكم»، يقول لها والدها، بينما تفضح نيّته شراء بيوت للذكور ادِّخاره للمال المُجنى «أصلاً ما بِأَمِّنْ لنا حياة كريمة، وعايشين بالتقشُّف».

ظروفُ العائلة وفُرص التطوّر

تقول الباحثة عليا أحمد[4]: إنّه «لا يُمكِن التعميم خلال الحديث عن تأثير النزوح واللّجوء في حياة المُراهقات والبالغات، فلكلِّ امرأة ظروفها التي أسهمت في اختلاف تجربتها عن الأخرى، وإنْ كنّا نلحظ إيجابيّةً ما في تكيُّف المُراهقات مع اللّجوء وإفادتهنّ منه أكثر من البالغات. لكنّ هؤلاء لم ينجينَ بالمطلق إذ ما زلنا نلحظ استمرار التزويج المبكر لبعض المُراهقات حتّى في الغرب». تعمل الباحثة أحمد منذ خمس سنوات مع المُراهقات والنساء اللّاجئات إلى ألمانيا، وتَضع تقارير دوريّة عن ظروفهنّ واحتياجاتهنّ لتُساعد في تصويب المشروعات التي تستهدفهنّ.

تنطلق الباحثة أحمد من واقع حقوق الطفل بعامّةٍ والمُراهقات بخاصّة في ألمانيا، حيث وصلت اللّاجئات من سوريا، «هنا يتربّى الأطفال والمُراهقون في البلد المُضيف على مفهوم الحقوق والخصوصيّة وحريّة الجسد وحريّة التعبير عن الذات وغيرها من المفاهيم والتقديمات التي تُسهِّل له تكوين شخصيّته ومن ثمّ استقراره النفسيّ وغيرها من الأمور». ومع أنّها لا تعتبر الوضع في ألمانيا «الجنّة» حتّى بالنسبة إلى المُراهقات الألمانيّات «ولكن لا يُمكننا إلّا القول إنّ هناك هوّة شاسعة بين الاثنتَيْن، المُراهِقة السوريّة وقرينتها الألمانيّة».

وتعود الباحثة أحمد للتأكيد أنّه لا يُمكِن إطلاق سمات جَمَعيّة على المُراهقات السوريّات حيث هناك خصوصيّة لكلِّ عائلة تبدأ من المستوى التعليميّ للأهل، إلى المادِّيّ، ومدى تديُّن العائلة أو تزمُّتها أو انفتاحها، ومع ذلك، ومهما اختلفت ظروف المُراهقات السوريّات، فإنّ الوعي الجمَعِيّ عند المُراهقات الألمانيّات مختلف كليًّا عن السوريّات الآتيات من الحرب ورحلة اللّجوء المُضنية المليئة بالمخاطر أحياناً». وعليه،

(4) أُجريت المُقابلة مع الباحثة عليا أحمد المُقيمة في ألمانيا عبر الهاتف في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

تجد أحمد أنّ المُراهقات اللّاجئات غالباً «نجدهنّ صامتات في البداية، يستكشفْنَ المكان، يتفرَّجْنَ على كلّ ما حولهنّ، مع شعورهنّ بالغربة، وبكلِّ جديد، وبالطبع يأخذْنَ وقتهنّ للتفاعُل مع المحيط». لكنّ هذا التفاعُل لا يأتي منمَّطاً «بعض اللّاجئات لم يكنّ محجّبات، على سبيل المثال، فتحجَّبْنَ في ألمانيا، فيما خلعتْ بعضهنّ حجابها»، وهنا يبرز تأثير ظروف كلٍّ منهنّ مع عائلتها على مسار الاندماج في المُجتمع المُضيف والتأقلُم معه.

تشهد الباحثة أحمد حتّى على تلاعُب العائلات في موضوع تزويج القاصرات وهو ممنوع قانونيّاً في ألمانيا «يعني مِشْ بس بلبنان أو بالأردن بيزوجوهن». وكون الدولة المُضيفة تَمنح مبلغاً من المال لكلّ فردٍ لاجئ، فإنّ بعض العائلات تطلب من المَراكز المُهتمّة باللّاجئين تحويل المبلغ المخصَّص لابنتهنَّ إلى حساب زوجها، بعدما يدَّعون أنَّه صديقها، مع تبرير ذلك بالقول «بدّها تعيش مع صديقها»، بينما هي تكون قد تزوّجته دينيّاً (عقد قران دينيّ)، ويتمّ تأجيل الزواج المدنيّ ريثما تبلغ 18 سنة. ويستغرب بعض الموظَّفين كيف لمُراهقة صغيرة ومحجَّبة وملتزمة دينيًّا مع عائلتها أن يكون مسموحاً لها العيش مع صديقها من دون زواج. في الواقع، تطلب العائلة نقل المساعدة الماليّة لحساب الزوج تنفيذاً لاشتراط الأخير بعد أن يكون قد دفع المهر لعائلة عروسه. وتوثِّق الباحثة أحمد تغيّراً في استخدامات المُراهقات أو البالغات من النساء، حيث إنّ المهر تحوّل في بعض الحالات من دفع المال «كاش» إلى الطلب من العريس أن يدفع للمهرِّب ويسعى لكي يأتِيَ بشقيقها أو بوالدها. ومع ذلك فإنّ الوضع أفضل ممّا كان عليه في بلد المنشأ مع متابعة أوضاع الفتيات التي تقوم بها المَدارِس فتخشى بعض العائلات المُساءَلة القانونيّة، ولكنّها متابعة لا تنجح دائماً في لجْم تلاعُب بعض اللّاجئين.

ويقوم تخوُّفُ العائلةِ من تأثُّر اللّاجئة المُراهِقة بعاداتِ المُجتمع المُضيف وسلوكيّاته بدورٍ كبيرٍ في تقييد حريّة المُراهقات وحركتهنَّ، وهو ما يحدّ من إفادتهنّ من فُرَص تطوير الذات والتعلُّم وتبلْور شخصيّاتهنّ. وتجد الباحثة أحمد أنّ بعض الأمّهات يتشدَّدنَ مع بناتهنّ خوفاً من تحميلهنّ (تحميل الأمّهات) مسؤوليّة أيّ تصرُّف قد يجده المُجتمع اللّاجئ مُنافيًا للعادات والتقاليد، لأنّ اللّومَ يقعُ على الأمّ في تربية الفتيات، وفق تفكير الآباء والأشقّاء والعمومة. وتُعبِّر المُراهقات مثلاً، في جلسات التفريغ النفسيّ،

عن تفضيلهنّ التسوُّق مع آبائهنّ، وليس مع الأمّهات، لِكَون الأب لا يُدقِّق في تفاصيل اللِّباس، ويكتفي بأن يكون مُحتشماً، بينما تُبالِغ الأمّهات في مُراقَبةِ كلّ دقائق لباس المُراهقات خوفاً من لَومهنّ من قِبَلِ الأب والأشقّاء الذكور. أي أنّ الأمّ تُصبحُ ملكةً أكثر من الملك، حيث يضع الأب على عاتقها ومسؤوليّتها تربية الابنة ومُراقَبة لباسها وعند أيّ تغييرٍ في لباس المُراهِقة يُقال لها دائماً «ليش هيك ملبّسِة بنتِك؟»، في منحىً لاستمرار لَوم المرأة وتحميلها المسؤوليّة. والأمر نفسه ينسحب على الأماكن التي تقصدها المُراهِقة وعلى نوعيّة الرِّفقة والجوّ المسموح لها التحرُّك في إطاره.

في المقابل، تُؤكِّد أحمد أنّ بعض المُراهقات يتمكَّنَّ من رفض التزويج المبكر عندما لا يكون هناك عنف في العائلة، كما يسعَيْنَ لاستكمال تعليمهنّ، حتّى أنّ بعضًا منهنّ تمكَّنّ من إقناع أسرهنّ بالعيش في مدينةٍ قريبة بعدما تمّ قبولهنّ للدراسة الجامعيّة حين لم يحصلنَ على قبولٍ في جامعة المدينة التي تسكن فيها عائلاتهنّ.

ومع ذلك تتفاءل أحمد بالنسبة إلى المُراهقات أكثر من البالغات على الرّغم من كلّ ما يُشاع عن أنّ اللّجوء بعامَّةٍ، وإلى الغرب بخاصّة، قد غيَّرَ في مَركز السلطة داخل العائلة السوريّة لمصلحة المرأة وفَتَحَ أمامها آفاقًا بسبب تفلُّتها من القيود والتقاليد التي كانت تأسر بعضهنّ في سوريا حيث يُشاع، على سبيل المثال، أنّ السوريّات صرْنَ مُتحرِّرات، وقد يُتَّهمُ بعضهنّ بالتفلُّت من القيود، وبارتفاع نسبة اللّواتي يَطلبْنَ الطَّلاق ويَحصلْنَ عليه، سواء أكان ذلك من البالغات أم من المُراهقات، هذا فضلاً عن زيادة نسبة الوعي عندهنّ تجاه العنف الأسريّ على أنواعه من اللّفظيّ إلى المعنويّ والجسديّ والجنسيّ. ولكنّ أحمد، التي تعمل مع أكثر من 200 عائلة لاجئة، تشهد أنّ هناك ما يزيد على 30 امرأة من محيطها يتعرَّضْنَ للعنف الشديد، ولكنهنّ غير قادرات على اتِّخاذ القرار بالطلاق، مشيرةً إلى أنّ اللّواتي حصلنَ على الطلاق من بين هذه العائلات انتفاضًا على العنف بأشكاله كافّة، هنّ أقلّ بكثير ممَّن يتحمَّلْنَ العنفَ ولا يُطالبْنَ بالطلاق، ومن بين هؤلاء مُراهقات متزوِّجات. وتلمس أحمد أنّ بعض النساء ممّن مضى على لجوئهنّ من ستٍّ إلى ثماني سنوات يتمتَّعنَ ببعض القوّة، ولكنْ هناك كثيرات من بينهنّ ما زلْنَ يَخضعْنَ للتقاليد ولتبعيّة المرأة للرَّجل والخضوع له. ويتمظهر هذا الخضوع، من مُراهِقات أو بالغات، على سبيل المثال لا الحصر، في جهلهنّ لقيمة المبالغ الماليّة التي ترسلها لهنّ الدولة

المُضيفة، وفي عدم امتلاكهنّ أيّ سلطة على هذا المبلغ الذي هو خاصّتهنّ، ولا يمتَّعنَ بحساباتٍ مُنفصلة عن آبائهنّ أو أزواجهنّ. في المقابل نجد أخريات بدأْنَ يسألْنَ عن المال وعن حقّهنّ بمساعدة عائلاتهنّ في بلادهنَّ كما يفعل الأزواج، وهو ما يُبيِّن حصول بعض التغيير وإنْ كان ليس عامّاً أو جمعيّاً. وتُركِّز أحمد على مدى تغيُّر اللّاجئة البالغة لترصد تأثيرها في اللّاجئة المُراهِقة، إذ كيف لمَن لا تستطيع تغيير حياتها أو حماية نفسها أنْ تدعم ابنتها المُراهِقة وتحميها سواء من الأب أم الأخ؟ ويقوم ما يُشاع عن تحرُّر المرأة السوريّة بدورٍ سلبيٍّ أحيانًا يتمثّل في زيادة الرقابة اللّصيقة على المُراهقات خوفاً من تأثُّرهنّ بسلوكيّات المُراهقات الأجنبيّات، وهو ما حصل مع ماجدة (15 عاماً) التي يُحوِّل شقيقُها حياتَها إلى ما يُشبه الجحيم.

«ما لازم تفلتي»

تعيش ماجدة[5] مع والدتها وشقيقتها رلى وشقيقها في ألمانيا بعدما لجأوا إليها من مخيَّم اليرموك في سوريا «نحن كفلسطينيّين عاداتنا متل عادات العائلات السوريّة وتقاليدنا أيضاً وسلوكيّاتنا»، تقول وكأنّها تُؤكِّد تمسُّكها بما يتوقَّعه منها المُجتمع اللّاجئ بعامَّةٍ، وعائلتها بخاصّة «يعني أنا بعرف أنّي ما فيّي كون متل الألمانيّات، بس أخي بيضلّ يضغطني ويتدخَّل في كلِّ شيء». لم تكُن ماجدة محجَّبة عندما تركت سوريا «أبي ما جبرني بالحجاب وترك لي الحريّة». بعد وفاة والدها في الحرب، لجأت العائلة إلى ألمانيا ولم تكُن قد أتمّت الرابعة عشرة من العمر، فانتقلت السلطة إلى الأخ على الرّغم من وجود الأمّ، وهي خمسينيّة وحاضرة في إدارة شؤون الأسرة. وهنا بدأ شقيقها بالتدخُّل في تفاصيل حياتها كافّة تحت ذريعة «ما بدّي تفكّري حالِك ألمانيّة وتفلتي». تجنُّبًا للمُشكلات، أذعنت لرغبته بارتداء الحجاب، ولكنّه لم يكتفِ بذلك، وما زالت تعاني من ضغوطه. يُراقِب هاتفها وكلّ رسالة قد ترِدها بعدما مَنَعَها من وضْعِ كلمة سرّ لفتْح الهاتف «ما عندي أيّ خصوصيّة». يعترض على ارتدائها أيّ قميص فوق البنطال لا يصل إلى ركبتها، يمنعها من مُصادقة أيّ فتاة حتّى لو كانت لاجئة في حال كانت سلوكيّاتها غير تقليديّة أو بدا عليها تمتّعها بهامشٍ ولو ضئيلٍ من الحريّة، ويظلّ يُراقِبها طوال الوقت

(5) تمّت مُقابَلة ماجدة في لايبزيغ في ألمانيا صيف العام 2018.

مع أنّها لا تتزيَّن كما بقيّة الفتيات «محرِّمني حّط حتّى قلم كحل بعيني». كما أنّه حاولَ تزويجها من صديقه لكي لا تُفكِّر في دخول الجامعة. وعندما لجأت إلى عمِّها تطلب تدخُّله لكي يُخفِّفَ من الضغط عليها قال لها الأخير «أخوك أدرى بمصلحتك»، على الرّغم من أنّها أبلغته وشقيقها أنّ الضغط والمُراقَبة اللّصيقة ليسا ما يمنعها من ارتكاب ما يعتبرانه «غلطًا»: «فأنا أحمي نفسي وأعرف حدودي»، في ما يدلّ على نظرة المُراهِقة اللّاجئة نفسها لما تُسمّيه حدود حريّتها وخصوصيّتها.

أمّا أمّها فقد اكتفت بالقول «لو بعدْنا بسوريا كنت بحبّ تخلِّص جامعة وتحبّ وتتزوّج، بس هون نحن خايفين تتأثَّر بجوّ المصاحبة والسهر، ثقافة ألمانيا بتختلف عن ثقافة بلدنا ودينا، الألماني بياخدها فترة وبيكِبّها. ما عنّا تعصُّب فكريّ بس هون الظرف غير». وعندما نسألها عن مسؤوليّتها في حماية ابنتها من تسلُّط شقيقها، ترى أنّ كلّ تصرُّفاته هي حبًّا بأخته وحرصاً عليها، وأنّه «حنون» ويخاف عليها كثيراً. ومن باب ما تُسمّيه الأم «حنِّيته» تمكّنت من إقناعه بعدم إرغامها على الزواج، وخصوصًا أنّ ماجدة «شاطرة كتير وفيها تِعمل أحلى اختصاص».

تقول ماجدة إنّها تقود معارك على جبهات كثيرة: أوّلها في المنزل لانتزاعِ هامشٍ مقبول من الحريّة، وثانيها مع الدولة المُضيفة لِكونها فلسطينيّة سوريّة «لعنة احتلال فلسطين تلحق بي حتّى إلى ألمانيا». تحمل ماجدة جواز سفر كُتب عليه «بلا وطن» وهذا ما عرّضها لعنصريّةٍ إضافيّة من قِبَلِ موظَّفي مَراكِز اللّجوء والدوائر المَعنيّة به. في ألمانيا يمنحون السوريّين بطاقة خضراء قبل الإقامة تُخوِّلهم دخول المَدارِس ومَعاهِد اللّغة «وأنا كانوا يرفضوني». ومع رفْضها لأشهُرٍ من مَدارِس ومَعاهِد مُختلفة لأنّها «بلا وطن»، ناضلت ماجدة كثيراً لتَجِدَ مَعهداً لا يسأل عن الهويّة لقبولها لتدرس فيه «كان حظّي كتير حلو ودلّني رفيقي (وهو فلسطينيّ مثلها) ع معهد ما بيطلب إقامات وسجَّلْت ودرسْت».

ذكريات أو أهوال لا تُنسى

وعلى الرّغم من تمكُّن الكثير من المُراهقات من التمتُّع بسلّة حقوقيّة مقبولة لاستكمال حياتهنّ وتطوُّر شخصياتهنّ والتعلُّم، إلّا أنّنا نجدهنَّ أسيرات ذكريات الحرب وطريق اللّجوء. صحيح أنّ ياسمين لا تنسى قصّةَ سَحَر التي اغتُصِبَت خلال محاولتها

الوصول تهريباً إلى ألمانيا، ولكنّ ذاكرتها تعجّ أيضاً بالمخاطر والويلات التي عبرت بها منذ لحظة تَرْكِ والدتها وأشقّائها وشقيقاتها في سوريا وانتقالها إلى القامشلي ومنها إلى تركيا فالبحر وصولًا إلى اليونان ومنها إلى ألمانيا. تصرّ المُراهِقة التي كانت في الـ 16 من عمرها عندما قرَّرت أمُّها فجأة أن تسبقها وبقيّة العائلة للعيش مع والدها الذي كان يُنجز أوراقَ لمِّ شَمْل زوجته وأبنائه «خافت عليّي من الحرب والمسلَّحين والأوضاع الفالتة». دفع والدها 3 آلاف يورو لرحلة التهريب، وعليه أرسل لها المهرِّب دعوةً مع كفالةٍ لزيارة عائلته في القامشلي التي وصلتها بالطائرة من ضمن تكلفة التهريب «وْصِلْت ع القامشلي مع رفيقتي وعمرها 16 سنة أيضاً». أسكنهما المهرِّب وعمره 35 عاماً في بيته «بس طلع إبن حرام، كان فورًا بيقطّع الهاربين الحدود من القامشلي بس نحنا، مع تلات بنات غيرنا، ما فوَّتنا فورًا ع تركيا». بقيت الفتيات 15 يوماً في الكونتينر الذي استحدثه المهرِّب بالقرب من بيته لإسكانهنّ «ووصلنا لمرحلة أنّه مُمكن نرجع ع سوريا، كنّا بنات وبدُّه يستغِلنا، يُمكِن كان عم يفكِّر يتاجر فينا أو يشغِّلنا بالدَّعارة». وعليه، اتّفقتِ الفتياتُ الخمس على الحراسة «كلّ يوم واحدِة مِنّا تبقى تحرس وما تنام أبداً خوفًا من أن يعمل لنا شي». في اللّيلة الـ 14 اغتصبَ سَحَر التي كانت تلحق بوالدها في ألمانيا أيضاً، وبعد تهديده من عم ياسمين قَطَعَ بها وبرفيقتها الحدود التركيّة «يعني كان قادر يفوِّتنا ع تركيا بس ما بدُّه». عَبَرت ياسمين وصديقتها الحدود عبر نفق حَفَرَهُ المهرِّبون لا يراه العسكر التركي. بعد الحدود بأمتار سلَّمهما المهرِّب إلى قريبة صديقتها التي اصطحبتهما إلى بيتها لغاية الصباح لكي تلتحقا بلاجئين آخرين وتركبا زورقًا مطّاطيّاً يعبر بهنَّ البحر إلى اليونان. على الشاطئ صعدت ياسمين في زورق صغير «كذَّب علينا كمان، ما في زورق مطّاطي كبير، لقينا مركب صغير وعليه 57 راكبًا قاعدين فوق بعض».

بعد الابتعاد عن الشاطئ التركيّ بقليل بدأ سائق الزورق يدور حول نفسه «يعني ما بيعرف يسوق مركب»، ثمّ اندلعت عاصفة ونَفَدَ الوقود وصار المركب يغرق». اتّصلت ياسمين بوالدها لكي يُخابِر خفر السواحل اليونانيّ بينما غرق بعض مَن كانوا على متن القارب إثر سقطوهم في البحر «وأنا أُغمِي عليّي في أرض المركب وما عدت عرفت شو صار». ما زالت تسمع أصوات الغارقين يستغيثون ولا أحد يجرؤ أو يقدر على مساعدتهم.

لا تعرف ياسمين كم مرّ من الوقت قبل أن يصل اليونانيّون ويسحبوا مركبهم إلى جزيرةٍ تبعد ساعة ونصف الساعة عن مكان تواجدهم في البحر «حسَّيت إنّه رجعت لي روحي، فكَّرت إنُّه ما بدّي عيش كرمالي بس كرمال ماما وبكيت كتير لأنّه بالمركب وبنصّ البحر ما حسَّيت إلّا بالموت».

في اليونان منحوا كلَّ لاجئ/ة خريطة تُسهِّل له/ها العبور من مكان إلى أخر «الصليب الأحمر صار يساعدنا لنعبرَ على الحدود ومن مكان لمكان وسهّلوا هروبنا ع صربيا ومنها للنمسا ثمّ ألمانيا». وفي كلّ مرحلة كانت ياسمين ترفض أن تبصم على دخولها كما في صربيا وكذلك النمسا «كان أبي قايل لي إذا ببصم ما بعود بقدر فوت ع ألمانيا». في النمسا احتجزوها مع صديقتها في مخيَّم مقفل ولكنّها تعرَّفت إلى شاب سوري من حلب «طلع ابن حلال، استعمل الكارت تبعه لفتح باب المخيَّم وأخرجنا ثمّ أوصلنا إلى محطّة القطار حتّى وصلنا إلى لايبزيغ في ألمانيا». بكت ياسمين أكثر من مرّة وهي تروي قصّة وصولها إلى ألمانيا «مثلًا كان ممكن كون أنا مكان سَحَر اللّي اغتصبت». لكنّها وكما وضعت ما حدث مع رفيقة درب التهريب وراء ظهرها ومعها ما حصل معها في البحر حتّى وصلت إلى ألمانيا، تقفز عن الماضي لتبدأ بسرد واقعها وما تُخطِّط له مستقبلًا «كان حظّي كتير حلو رغم أنّي تعرّضت للعنصريّة من بعض موظّفي مراكز اللّجوء». تمكَّنَتْ بعد أيّام من دخولها ألمانيا من التسجيل في معهدٍ للّغة «وكان المعهد للأبحاث كمان وعم يعمل دراسة عن التغيُّر الذي يطرأ على حياة اللّاجئين فما أخد منّي مصاري وعملي دورات مكثَّفة مكَّنتني من النجاح بمستوى B1 الذي يُخوِّلني مراسلة الجامعات». في هذا الوقت تعرَّفت على سيّدة سوريّة تعمل مع جمعيّة تهتمّ بالنساء اللّاجئات «عمِلْت معهن أكثَر من تدريب وطبّقت اللّي تعلمْته باللّغة عمليّاً، وإجاني قبول من جامعة خارج لايبزيغ». هنا رفضت عائلة ياسمين أن تعيش بعيداً عنها «قال في كتير نازيين بمدينة الجامعة فخافوا عليّي ومنعوني روح».

اليوم تتحضَّر ياسمين لدخول جامعة أخرى في لايبزيغ «اشترطوا إعمل سنة تحضيريّة وإذا نجحت فيها بدْخُل اختصاص»، تقول ذلك وهي تشرح كيف أقنعت عائلتها بعدم تزويجها «قلت لأبي بدّي إتعلَّم وكون مستقِلّة حتّى لمَّن أتزوّج كون قويّة وهو اقتنع معي». تُؤكِّد أنّها لا تُفكِّر اليوم سوى بإنهاء دراستها الجامعيّة بينما تتحضَّر شقيقتها

الصغرى التي صارت اليوم في الـ 16 من عمرها للزواج «أختي ما بتحب تتعلَّم، انخطبت لدكتور وبدها تتزوّج وأهلي مبسوطين فيها». منحتها الدولة الألمانيّة قرضاً جامعيًّا «يعني ما بعوز مصريّات أهلي وبتعلَّم وبعدين بردّه». تحكي عن إيجابيّات اللّجوء من دون أن تنسى السلبيّات «في موظّفين عنصريّين، مرّة حاولت واحدة تخلّيني أُوقِّع على ورقة بتقول إنّه لازم اشتغل وبتنازل عن حقّي بالتعليم، وأنا أصرَّيت إقراها وما قبلت وقِّعها». ترى ياسمين أنّ انفتاح أهلها أكثر من عائلات سورية أخرى ساعدها في التأقلم وقلَّل من مشكلاتها ولكن دائماً تحت سقف التقاليد والعادات «أنا بعرف حدودي وما بزعِّلهم، وأنا مقتنعة أنه نحن غير الألمان».

خسارة الوطن لا تُعوَّض

من الحديث مع اللّاجئات يُمكِن تلمُّس تأثير الحرب في بعضهنّ بقدر عيشهنّ لها. فاللّواتي تمكَّنَّ بسرعة من مُغادَرة بلادهنّ نَجَوْنَ بمعنى من المعاني، فيما نجد أخريات مثقلات بذكريات أهوال ما حصل وبالموت وأصوات القصف وتبعات التفلُّت الأمنيّ وسلوكيّات المُتقاتلين. كما نجد تأثير مدى انخراط عائلة المُراهِقة في الحرب والسياسة فيها وفي تفكيرها والمسافة التي تفصلها عن كلّ ما يحصل، وهي حال سلمى اللّاجئة العراقيّة في لبنان.

تجلس سلمى[6] الأربعينيّة اليوم لتصف نفسها بِـ«الطفلة التي تربّت على أصوات الصواريخ». نسألها «والرّصاص كمان؟»، تبتسم بسخرية لتقول «الرصاص كان عادي، لمَّن بتعيشي ع وقع الصواريخ بيصير الرصاص لعب اولاد بالحارة». بعد أربعين عاماً على ولادتها ترى أنّ أهمّ أثر للجوئها هو خسارة وطنها العراق «أنا مكسورة، ليس لأنّني عشت طفولتي ومُراهقتي في الحروب، بل لأنّني بلا وطن، خسرت وطني، وهذا أقسى ما يُمكِن أن يحدث لإنسان». ذاكرتها تعجّ بالأحداث والأهوال هي التي وُلدت مع اندلاع الحرب العراقيّة الإيرانيّة. كانت في السابعة من عمرها عندما سقط صاروخ على مدرسة تبعد مئة متر عن مدرستها «رفقاتي كلّهم ركضوا بالساحة وأنا تجمّدت بمكاني وانربط لساني وبقيت جامدة حتّى سمعت صوت أبي من ورا السياج عم يناديني». لحظتها

(6) تمّت مُقابَلة سلمى في تشرين الثاني/نوفمبر 2021 في لبنان.

انهارت وبدأت بالصراخ فحملها وعاد بها إلى البيت حيث لم تتوقّف عن البكاء. قَتَلَ الصاروخ كلّ أطفال المدرسة وأطلقت عليها الدولة اسم «بلاط الشهداء».

لم تكُن المدينة التي يعيش فيها عمّ سلمى تتعرّض لقصفٍ شديد كما بغداد، وعليه أرسلها والدها لتكمل عامها الدراسيّ في منزله «كنت ضلّ خايفة وإجريّي يرجفوا كلّما سمعت صوت صاروخ، أرجف لدرجة إنّو أبي يقعد يثبّت لي إجريّي حتّى إهدا». تصف سلمى انتقالها للعيش في منزل عمّها بِـ«التهجير الأوّل». أثّر بها التهجير كثيراً على الرّغم من أنّه وثّق علاقتها بعمّها كثيراً «كنت معلَّقة بأبي كتير، كنت لمَّن يروح ع الحرب احتفظ بقطعة من تيابه وأعبطها ونام حتّى يرجع».

بعدها فُقد شقيقها في إحدى المعارك فعادت إلى أسرتها «كانت أمّي كلّ خميس تطلِّع تيابه تغسلهم وتنشرهم وتقعد تبكي حدِّهم». بعد ثلاث سنوات تأكّد استشهاده في الحرب، فقرَّر والدها أن يرسل ثيابه لإحدى الجمعيّات لكي يُخفِّف عن والدتها «سرقت من عطره وحطَّيت منه ع محرمة وخبّيتها بشنطتي وضلّيت شمّها إلى أنْ تهجَّرت من العراق نهائيّاً»، لكنّها حتّى اليوم تحفظ رائحتها «بس يكون حدا معطَّر بمتلها بعرفها فورًا بس بستحي إسأل».

انتهت الحرب العراقيّة الإيرانيّة ليختفِيَ والدُها خلال دخول العراق إلى الكويت «انفقد أبي وبلَّش الحصار، وضلَّينا شهور ناكل بطاطا معجونة مع نخالة ومشويّة ع الصوبيا بلا أيّ شي تاني». وعلى الرّغم من ذلك علَّمتها الحرب الكثير عن العلاقات الإنسانيّة «تعلَّمنا كيف نعيش بالظروف الصعبة، كيف نلمّ الشوك من الأرض الخرابة لنطبخ عليها، كيف نُساعد بعضنا نحن وسكّان الحارة، وكيف البيوت الواطية تستقبل سكّان الطوابق العليا، وكان بيتنا أرضي ينزلوا الجيران يناموا عِنّا، الحرب كتير عملت إلْفِة بين الناس وقرَّبتهم من بعض». وحده الاحتلال الأميركيّ فَرقَ العراقيّين «عِمِلْنا سُنَّة وشيعة وعمل فجوة بيناتنا».

حرب الخليج غيَّرتها «بالحرب بيموت القلب وهيك صار معي فعليّاً، بتنسي تخافي والناس عم تموت، بيصير الخوف رفاهيّة». مع التدريبات العسكريّة التي خضعت لها وكانت في 15 من عمرها، بدأت تتحوّل إلى فتاةٍ شجاعة «الزي العسكري لوحده بيعطي

قوّة، وفكرة إنّك عم تستعدّي لتقدري تدافعي عن بلدك بتخلّيكي تصيري قويّة كمان، ولمَّن تقوصي ع الهدف وتصيبيه، بتحسّي إنّك قادرة تحمي نفسك ووطنك».

حتّى مواظبتها على الذهاب إلى المدرسة خلال حرب الخليج كانت بالنسبة إليها «تحدّيًا»، «كتير تلامذة وطلّاب ما عادوا داوموا لأنّهم استهدفوا المَدارِس وصار النجاح جهاد». في عمر الـ 15 عاماً عرفت تجربة تعتبرها كانت مفصلًا في حياتها «لمَّن انقسم البلد طائفيًّا وصار في ميليشيات، واحتلّوه الأميركان وفقدنا كلّ الأمان، أعطاني أبي مسدسًا وقال لي ممنوع تخلّي حدا يفوت ع البيت». كانت تسهر والرصاصة في بيت نار مسدسها «أقعد راقب الباب وأبي غايب، وكنت مستعدّة أطخّ أيّ ميليشياوي أو محتلّ مُمكن يحاول يفوت ع بيتنا». لكنّ رؤيتها للجنود الأميركيّين حين دخلوا بغداد «كبَّرتني 50 سنة». وبدأت تتوالى خيباتها «كتير ناس انقلبوا وتغيَّروا وتعاملوا وخانوا، وأنا ما إستوعب وجود الأميركان بشوارعنا». الشوارع عَينها التي رأت فيها الموت يوميًّا «كنت أشهد ع دبّابة عم تطلع ع سيّارة وتدهس كلّ من فيها، عَ تفجير يطلع بعيد عنّي بمئات الأمتار فقط ويقتل العشرات»، وهي نسِيَت أنّها مُراهقة «نسيت إنّي صبيّة، أنّي امرأة، لم أعِش من كلّ هذه المراحل أيّ شيء غير الحروب والتهجير»، إلى أنْ أتى اليوم الذي تركت فيه العراق نهائيّاً.

كان ذلك في مساء قَصَدَت فيه إحدى الميليشيات المُتقاتلة منزلَ عائلتها بقصد اعتقال والدها «كانوا يعتقلوا الرجال بحجّة التحقيق معهم وبعدين نلاقيهم جثثًا». تمكّن والدُها من الهرب قبل أن يتعرَّف إليه المسلَّحون «فكّروه واحد تاني وسمعهم جارنا عم يقولوا إسمه فبلّغه وهرب». دخل المسلَّحون المنزلَ وكانت بداخله وبدأوا يُحقِّقون معها ليعرفوا مكان والدها «راح لعند عمّي خارج بغداد»، قالت لهم، فوضعوها أمام ثلاثة خيارات: إمّا أن ترشدهم إلى مكانه أو اغتصابها أو إفراغ بنادقهم في رأسها. تقول إنّها تلَتْ صلاتَها في قلبها واستعدَّت للموت حين رنّ هاتف المسلَّح الذي يُمسِك بها وجاءه أمرٌ بإخلاء المنطقة فورًا نظرًا لحصول تطوُّرات لم تعرفْها. بعد رحيل المسلَّحين جاءها مرسال من والدها بوجوب مغادرة بيتهم فوراً. رفضت الرحيل ولكنّه أرسل لها يقول «ما تكسريني»، وكان يقصد أنّه يخاف من اغتصابها، واعدًا إيّاها بالعودة عند أقرب فرصة. «ودَّعت حيطان

البيت حيطًا حيطًا قبل ما فِلْ» تقول والدُّموع تكرّ من عينَيها. لم تكُن رحلة وصولها إلى لبنان سهلة «كان يُمكِن أن نُقتل في أيِّ لحظة».

هنا في بيروت جاءت غريبة وبقيت غريبة لغاية اليوم. يتعامل معظم مَن حاولتْ أن تشتغل معهم معها على أنّها ضعيفة وهشّة وامرأة «وذقت الكثير من الخيبات من الناس، وبقيت غريبة، غريبة، غريبة». غربة تضعها في مواقف جدّ صعبة «في كتار عرضوا عليّي يشغّلوني بالدعارة، كتار عرضوا يحموني ويساعدوني مقابل علاقة، ما عدت إنسان بنظرهم، فقط أنا كائن قابل للاستغلال». بعدما ساء وضع العراق لدرجة أبلغها فيها والدها بعدم قدرتهم على العودة نهائيّاً، رمت عقدها الوحيد الذي حملته معها في بحر بيروت. تقول إنّ طفولتها ليست مهمّة بالنسبة إليها، ولا مُراهقتها كذلك، وحتّى شبابها اليوم «أنا أكبر غريبة، بلا وطن أستطيع العودة إليه وهذا يقتلني».

شبح الحرب

وكما تختلف قصص اللّاجئات من فلسطينيّات وسوريّات وعراقيّات، نجد اختلافاً في تأثير الحرب اللّبنانيّة في المُراهقات حينها، ولاسيّما في ظلّ شبحها اليوم في خضمّ الأزمة التي تعيشها البلاد، ومن هؤلاء ديما[7]. حين سقط تلّ الزعتر لم تكُن ديما تعرف منطقة بأحيائها كافّة غير النبعة في شرقي بيروت «كان عمّي عنده مبنى كامل وكنّا عايشين كلّ عيلة، من عمّاتي وعمومتي ونحن، بشقّة». وكانت هي في عامها العاشر.

اليوم وهي تُقفِل خمسينها تتذكَّر ديما نفسها وعائلتها محشورة في سيّارة تاكسي مع أكياس الثياب الضروريّة وكُتب المدرسة، فيما أزيز الرصاص يُطوِّقها (يُطوِّق السيّارة) وهي تخرق عباب منطقة المتحف في بيروت «قالت لنا أمّي وطّوا روسكم ع أرض السيّارة». كانت الأكياس تحجب عنهم القنّاصين من دون أصوات طلقاتهم. وعندما وصلوا إلى منطقة الحمرا، حيث يسكن جدّاها لأمّها، جعل أباها يتفقّدهم الواحد تلو الآخر «بدُّه يشوف إذا حدا انصاب». «شعرت أنّي اقتُلِعت من بيئتي، من المنزل الذي تربَّيت فيه، ومن المبنى الذي كان بمثابة حارتنا، نحن الأقارب، وفقدتُ للمرّة الأولى أيّ إحساس بالأمان»، وفق ما تقول. بكت كثيرًا بعدما وضَّبت أمها بعض الأغراض وأبلغتهم أنّهم

(7) تمَّت مُقابَلة ديما في تشرين الأوّل/أكتوبر 2021.

سيعودون إلى منزلهم في إحدى القرى الجنوبيّة. لكثرة صراخها «ما كنت معلّقة بالضيعة وببيتنا فيها، كنت بدّي ضل حَدْ بيتي ببيروت»، توسَّطت جدّتها مع أمِّها لتتركها عندهم، وهكذا حصل. على الرّغم مِنَ التهجير، شعرت ديما للمرّة الأولى بغياب الرقابة اللَّصيقة لأمِّها «حسَّيْت حالي حرّة، يعني عندي هامش أوسع ممّا كان مع أهلي»، وقد أحبَّتْ هذا التغيير. تغييرٌ لم يدمْ كثيراً إذ عاد والدُها بعد انتهاء العام الدِّراسيّ واصطحبها إلى الجنوب.

وجاء العدوان الإسرائيليّ في 1978 ليُهجِّر عائلتها من الجنوب «هربنا تحت القصف ورجعنا ع بيروت» قالت أمُّها إنّها لن تعودَ بهم إلى الجنوب، وهكذا كان. اِستأجرت العائلة منزلًا عبارة عن غرفة كبيرة مقسومة إلى غرفتيْن صغيرتَيْن تحت درج أحد أبنية بيروت «كان بيتنا بالنبعة كتير كبير وحلو» عكس هذا المنزل الصغير المُعتِم الذي تعشعِش فيه الرطوبة. والأهمّ أنّ والدها صار بلا عمل «خسر أبي شغلُه بالنبعة وكان جيِّدًا، ومعه تغيَّرت حياتنا وصِرنا عايشين بالقِلِّة». عندما اتَّسعت دائرة التهجير، تتذكَّر ديما أنّ أمَّها كانت تخرج يوميًّا مع صرَّةِ ملابس وفرشة اسفنج لتبحث عن بيت فارغ تضع فيه ما تحمله لتُثبتَ سيطرتها عليه، إلى أن تمكَّنتْ من العثور على شقَّة مرتَّبة في «راس النَّبع». تُعشعش في ذاكرتها حروب الشوارع، طوابير الخبز وكلّ شيء، لا كهرباء ولا ماء ولا غاز، وكانت أمُّها تبيع ذهبَها قطعة قطعة لتدخلهم كلّ عام حتّى إلى المدرسة الرسميّة، فيما باع والدُها كلّ ما يملك في الجنوب حتّى يُعيلهم. كانت مدرستها في الثانوي تبعد نحو 5 كيلومترات عن منزلها، ومع ذلك كانت تقصدها سيراً على الأقدام. غيَّرتها الحرب ولكنّها أنضجتها «تطوَّعت مع جمعيّات أهليّة وشكَّلت مع آخرين فِرَقاً لتنظيم أنشطة للأطفال وأعمال مسرحيّة، ودورات محو أُمِّيَّة للنساء، وكانت هذه الأنشطة مساحتها التي تخرج فيها من البيت «يأمّنوا عليّ لأنّي مع الجمعيّة القريبة ع البيت».

مع تهجُّرها من الجنوب، وانخراط والدها في مقاومة إسرائيل، وَعت ديما على القضيّة الفلسطينيّة «رحت اتدرَّبت ع السِّلاح من دون ما خبِّر أهلي، كانوا يمنعوني وأنا روح من وراهم». تعلَّمت على فكِّ السلاح وتركيبه وتنظيفه وعلى إطلاق النار، وبدأتْ تُفكِّر في تنفيذ عمليّة استشهاديّة. في هذه الفترة تشكَّل وعيُها السياسي «ما كرهت الحرب بهيدي الفترة، كنت حِسْ إنّها وسيلة للتغيير»، وكانت تعتبر ما تقوم به نضالًا «حتّى إنّي

صرت إخجل إذا اشترت لي أمّي تياب جديدة»، توسّخ ثيابها لكي تخرج بها في الطريق لكي «لا تبدو جديدة». تركت الحرب فيها تغييراً جذّيّاً وإيجابيّاً كما تصفه «لمَّنْ كنت ببيتنا بالنبعة ما كنت إقرا غير بكتب المدرسة»، في الحرب نضجت شخصيّتها ومفاهيمها «كنت مراهقة واعية» وهذا ما أحبَّته كثيراً «حتّى أخوتي يروحوا ع التّظاهرات ويرجعوا مفجَّمين ومجروحين» وهو ما كان يُعجبها كثيراً. وانخراطاً منها في ما يحدث من حولها، خضعت لدورة إسعافات أوليّة وصارت تخرج إلى الميدان مع كلِّ تفجير «كنت خاف من السيّارات المفخَّخة، ووَحْدَه العمل في الإسعاف أنقذني»، شعرَتْ أنّها فاعلة وتُسعِف وتُسهِم في إنقاذ حياة الناس.

خلال الاجتياح الإسرائيليّ في العام 1982 قرَّر والدها إعادة عائلته إلى الجنوب «هربتُ من السيّارة وتخبّيت وبقيت بالعاصمة وراح كلّ الخوف من جوّاتي». كثّفت من نشاطها مع الجمعيّات بين الناس، ولكنَّ مشهدَ الجنود الإسرائيليّين على أرصفة بيروت لا يُغادِر ذاكرتها. وعندما انطلقت جبهة المقاومة اللّبنانيّة وبدأتْ بتنفيذ عمليّات مقاومة بالإسرائيليين، قصدتْ أحدَ الأحزاب اليساريّة وطلبت إرسالها لتنفيذ عمليّة بهم، ولكنَّ قيادة الحزب رفضت طلبَها «لمَّن شفت الإسرائيليّين ع الحواجز وأحيانًا معهم لبنانيّين اختنقت». ومع ذلك لم تشارك في معارك أو أعمال عسكريّة «ضَلْ عملي إنساني طوال الحرب».

عندما اندلعت اشتباكاتُ عين الرّمّانة ـ الشيّاح كانت ديما في منزلها في فرن الشبّاك على حدود عين الرمّانة. أمضتْ خمسَ ساعات مُحاصَرة بالرصاص والاشتباكات. خمس ساعات عادت فيها صور الحرب وكلّ ما عاشته في أيّام مُراهقتِها «قعدت إبكي، كِنْت مرعوبة مِش قادرة إحمِل صوت الرصاص، واكتشفت إنّو الحرب كانت كتير بشعة وأنا مش قادرة عيش حرب تانية، ولا يرجع البلد إلى ما كان عليه».

هل اللّاجئات مُخيَّرات؟

تأتي قصص اللّواتي تمّت مقابلتهنّ لمصلحة هذه الورقة/التحقيق لتقول الكثير في خصوصيّة كلّ مُراهِقة عاشت الحرب والتهجير واللّجوء، إذ نادراً ما نجد قصَّةً تُشابِهُ الأخرى وتجربةً تتطابق مع تجربة، كما أنّ للبنية النفسيّة للمرأة، مهما صغُر سِنُّها أو كبُر،

دوراً جوهريّاً في كيفيّة تكيُّفها مع التغيير الذي فُرِض عليها واقتلعها من بيئتها ومُجتمعها وكامل حياتها، ورماها في مهبِّ الريح. ونعم تَرَك اللّجوء، وخصوصاً إلى مُجتمعاتٍ مُضيفةٍ تؤمِّن الحدَّ الأدنى أو أكثر من الحقوق وفُرص التعلُّم والتطوُّر، آثاراً إيجابيّة على حياة بعض المُراهقات، ولكنّه في معظم الأحيان يبدو كفعلِ تأقلُم مع تيّارٍ تغييريٍّ تجد المرأة فيه نفسَها غير قادرة على العودة إلى الوراء، إلى الحياة التي كانت، وعليه تعمل بالمَثَل القائل: «إنْ لم يكُن ما تُريد فأرد ما يكون».

بهذا المعنى يبدو اللّجوء معهنَّ مكمِّلًا للطريق التي بدأت مع إغلاقهنَّ بيوت منازلهنّ في بلدانهنَّ، الطريق التي لا يعرفْنَ نهايتها، هنَّ الضيفات في الغربة ليس لديهنَّ أيّ أجوبة عن إمكانيّة العودة إلى أوطانهنّ، وهل يمتلكْنَ الخيار من الأساس؟ وخصوصاً أنّهنّ سيبقينَ ضَيفات لاجئات مهما أمضَيْنَ من سنواتٍ في البلدان التي وَصَلْنَ إليها، وسط تقاليد وعادات وضَّبتها عائلاتهنّ مع الحقائب ولم تتركها في بيئتها الأساسيّة.

وخسارة الأوطان ليست تفصيلًا في حياة المُراهقات، وخصوصاً عند توافُر الوعي السياسيّ. فخسارة الهويّة قاتلة على الصعيد النفسيّ، وترتبط لدى بعضهنّ بالكرامة الإنسانيّة التي لا يُمكِن أن تُعوِّضَها تقديمات مهما كانت، على الرّغم مِن بروز أهميّة تكريس حقوق اللّاجئات بالتعلّم والتطوّر وبالعيش الكريم في التخفيف من الآثار السلبيّة للحروب وذيولها، وهو الأمر الذي يُبرِز الدورَ المهمَّ للمنظّمات والجمعيّات التي تقود برامج ومشروعاتٍ داعمة لهنَّ كنساء بعامَّةٍ، وكمُراهقات بشكلٍ خاصّ، حيث يبدو تأثير الأخيرة جليّاً في تغيير الكثير، ولاسيّما إذا ما تناسب مع احتياجاتهنَّ الأساسيَة.

Wound Stories from the Palestinian Oral History Archive

Cynthia Kreichati

«We now know perfectly well that there is no need to be wounded by a bullet to suffer from the effects of war in body and soul.»

Frantz Fanon
The Wretched of the Earth (2004: p.217)

When Fanon wrote about the Algerian war, he argued that colonial violence impacted both colonizers and colonized, producing various forms of social and bodily afflictions(1). Though it referred primarily to the psychic effects of violence, his work invited a rethinking of the kinds of wounds that violence creates - not merely physical but equally historical, psychical, affective, and epistemological, all at once. From its very onset, the Nakba, with settler colonial violence as one of its defining features, comprised many such wounds and involved the continuing collective maiming, plundering, and erasing of Palestinian bodies, towns, communities, and entire ecologies. The specific injuries inflicted on the bodies of Palestinian women, who were young adolescents when

(1) Frantz Fanon, Jean-Paul Sartre, and Homi K Bhabha, *The Wretched of the Earth*, Trans. Richard Philcox (New York: Grove Press, 2004)

they were harmed, are the focus of this essay. Building on two accounts from Palestinian oral history archive, I explore how these Palestinian women (older adults when they were interviewed) recount how they experienced violence as young girls; and showcase the wounds which their young female bodies sustained and kept carrying as they grew older. I shall consider these debilitating wounds in their twofold manifestations - in the narratives of injury and in their embodied specificities - and I reflect on the distinctive ways through which they expose different modes of violent colonial subjugation. I engage the life story of Umm Faris, a woman with a peculiar history of sickness (caused by childbirth complications) and a formidable narrator of subjective experience; and turn to the oral history interview of Fatima Sirhan who was maimed in 1948, when the Israeli army bombed her village of al-Jish in Galilee(2). The narrative, embodied, and imagistic representations of these women's wounds evoke the fraught political and ethical dimensions of injuries; injuries that become enmeshed in a politics of truthful claim-making or that are negotiated in everyday life. Above all, the different figurations of their wounds reflect the inadequacy of pain sharing, in a context where violence and displacement are overbearing; and where careful listening to the archive is transformed to an act of witnessing on the margins of linguistic life(3).

While narratives of the Nakba have been suppressed (partly because of trauma and gaps in primary sources), the Palestinian Oral History Archive has contributed to the rupturing of this silence by recording and bringing within public purview not only stories of expulsion, dispossession, and ethnic cleansing, but also recollections of everyday life in Palestine - all from the point of view of those who lived, felt and experienced it(4). The

(2) Rosemary Sayigh, «Interview with Umm Faris,» 12 April 1998, http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/Gaza/halima_hassouna.html; The Nakba Archive Collection and the AUB Palestinian Oral History Archive, Interview with Fatimah Sirhan, 29 September 2003, Lebanon; https://n2t.net/ark:/86073/b35p7h.

(3) Samar Kanafani and Zina Sawaf, «Being, doing and knowing in the field: Reflections on ethnographic practice in the Arab region.» (2017): 3-11; Elaine, Scarry, *The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World* (New York: Oxford University Press, 1985); Lisa Stevenson, *Life beside Itself: Imagining Care in the Canadian Arctic* (Berkeley: University of California Press, 2014); Diana Allan ed. *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine* (London: Pluto Press, 2021).

(4) See for e.g.: Salim Tamari, 'Special Issue on Oral History, *Al-Jana: The Harvest* (Beirut: Arab Resource Center for Popular Arts [ARCPA], 2002); Hana Sleiman and Kaoukab Chebaro. «Narrating Palestine: The =

two interviews that this essay engages are drawn from two different oral history collections: the Nakba Archive which documents the accounts of first-generation Palestinian refugees in Lebanon, and the digital book, *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement,* part of anthropologist Rosemary Sayigh's later work recorded inside Palestine(5).

Captured on different mediums (Fatima Sirhan's on video and Umm Faris's on audio-record), the interviews underscore the continuous character of the Nakba as experienced by two Palestinian women who belong to two different generations. Having left Palestine as a teenager, Fatima Sirhan was in her eighties when she was interviewed; while Umm Faris, born several years after the Nakba, and her family likely displaced in the wake of the 1967 war, was in her early forties. These interviews meaningfully account for the transformations that occurred in their lives while also refracting the socio-political environment of the time and place in which they were recorded-around the early 2000s in the aftermath of the Oslo Accords, in Lebanon and Gaza for Sirhan and Umm Faris respectively. The acoustic background to Fatima Sirhan's video is populated with the sounds, shouts, and commotions of the refugee camp of which she is a resident: «Of course I choose to sit under an olive tree in my village. This is no life we are living here», she says. As for Umm Faris, who happened to have recently returned to Gaza at the time of her interview, the stories she narrates are shaped by the various forms and temporalities of Palestinian displacement since 1948.

Gender relations, embodied memories and the experience of exile are themes, inextricable from one another. They emerge when listening to the two women's interviews, with the violence they sustained as young adolescents, and which had irrevocably changed the course of their lives, at the very center of this entanglement. The specific analytical categories of youth and gender thus underpin the concerns of this essay, though not as a shift away from other significant broad social categories and structures, nor

= Palestinian Oral History Archive Project.» *Journal of Palestine Studies* 47, no. 2 (2018): 63-76; and Rosemary Sayigh, Afterword to *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine*, ed. Diana Allan (London: Pluto Press, 2021).

(5) Fatima Sirhan's video is drawn from the collection of the Nakba Archive, an oral history collective co-founded by Diana Allan and Mahmoud Zeidan in Lebanon in 2002 and part of the Palestinian Oral History Archive at the American University of Beirut (AUB). Umm Faris's audio-recording is published in Sayigh's digital book *Voices* and part of the AUB Libraries Digital Collections.

as an attempt to reify their changing meanings[6]. Rather, in centering the narratives and physical specificities of wounds in the bodies of adolescent girls, this essay considers the political and ideological contours of particular forms of violence that target young girls and explores its personal and structural consequences. As Comaroff and Comaroff put it, «youth stands for many things at once: for the terrors of the present, the errors of the past, the prospect of a future […] a constant source of creativity, ingenuity, possibility, empowerment. A source of alternative, yet-to-be-imagined futures»[7]. At the heart of this essay then are the manners through which Israeli colonial violence shatters the world by wounding the young; and an obstinate search, in the Palestinian oral history archive, for all the creative human possibilities that aim to refashion it.

Defined as the deliberate exercise of force to inflict injury, violence is the precondition for wounding. More than a mere exercise of wounding, settler colonial violence - a form of incremental genocidal violence in the Palestinian Nakba - is the systematic method of erasure of people, their cultures, and their environment[8]. Fatima Sirhan's story is a testament to the losses and absences that such violence provokes. Born in 1927 to a family of *fellahin* in the village of al-Jish in Galilee, Fatima married Abou Ali (who was also a farmer) when she turned sixteen years old and by 1948, they already had a son together.

In her oral history interview, she describes the village customs and rituals and recounts the joys and hardships of agricultural work in Galilee. More prominent than these vignettes, however, is the story of her physical and emotional suffering. That story begins when she is wounded by an air strike during the 1948 war, and after which she was to be expelled from Palestine, never to return. Although Fatima is unable to recall the exact date of the attack, the details she provides evoke the Israeli army's «Operation Hiram», launched by David Ben-Gurion in October-November

(6) Mayssoun Sukarieh and Stuart Tannock, *Youth Rising? The Politics of Youth in the Global Economy*, Critical Youth Studies (New York: Routledge, 2015).

(7) Jean and John Comaroff, «Reflections on Youth, from the Past to the Postcolony

(8) Nahla Abdo, «Feminism, Indigenousness and Settler Colonialism: Oral History, Memory and the Nakba.» In *An Oral History of the Palestinian Nakba*, ed. Nur Masalha and Nahla Abdo (London: Zed Books, 2018.

1948. This was a massive aerial, terrestrial and artillery attack that aimed at completing the Israeli occupation of Galilee and ousting Palestinian villagers and members of Jaysh al-Inqadh al-Arabi, the Arab Salvation Army of volunteer fighters that was led by Faouzi al-Qawuqji. During that military operation, the Israeli army committed some of the worst massacres of the war, in villages such as al-Dawayima, Safsaf, Saliha, 'Eilabun, Sa'sa', al-Hussayniyah and Hula[9]. As Fatima describes, her village of al-Jish was not spared the *qayazin*, the barrel bombs that fell on villagers, killing and wounding them, destroying their houses and burning their crops[10].

That same afternoon, Abou Ali, who owned a *bayyara* right by the border with Lebanon, had asked Fatima to flee al-Jish with their son, head to the *bayyara* and wait for him to join her there[11]. The attack started at dusk just as Fatima was walking out of her house with her infant son. She ran for cover and, with a group of villagers, hid under a big fig tree. But the Israeli planes, menacingly roaming above their heads and relentless in their attacks, began dropping several *qayazin* on them. The fig tree was immediately hit. «There were those whose heads were separated from their bodies; those whose intestines bulged out of their abdomen or through their backs», she explains. «Me…», she continues, «I lost consciousness and it's only when I woke a few minutes later, that I saw that my son, who I had held in my arms, had been killed on the spot and that my legs were completely lacerated, with the skin hanging and the bones visible». Later that night, an ambulance, dispatched by Jaysh al-Inqadh, took her, and several other wounded, and drove past the northern border, first to Bint Jbeil then Tyre. She received basic first aid and had her bandages, «heavily soaked and dripping with blood», changed. Since her condition was unstable and she continued to bleed, she was transferred to the «Joffre Hospital», a field hospital that the League of the Red Cross Societies had set up near the Joffre

(9) Laila Parsons, *The Commander: Fawzi Al-Qawuqji and the Fight for Arab Independence, 1914-1948*. (New York: Hill and Wang, 2016).

(10) Qayazin (or qawazin), term used to refer to large copper barrels stuffed with explosives that were thrown from planes on people during the attacks of Zionist militias on Palestinian towns and villages in 1947-1949. The singular form is *qizan* (or *qazan*), derived from the Ottoman Turkish, it is still used today to refer to barrels and other large containers.

(11) Bayyara: orchard of irrigated crops including citrus trees.

Army Barracks in Beirut, and where she stayed for six months[12]. Facing the camera, Fatima very graphically describes how her legs were immobilized with weights, how pus would continuously come out of her wounds and through the cast, and how she would plead to the doctor to remove it, but he would always refuse, «for your own good, he'd say».

The anthropology of wounds and wounding has considered the many facets of injuries (material, discursive, affective) in individuals and in society, underscoring their contingent techno-legal, socio-political, and ethical meanings. Mobilized in contexts of pervasive violence, wounds often involve the objectification of suffering; they shape, and are shaped by, institutional exchanges as well as in the interactions of everyday life[13]. This objectification of suffering has direct political consequences. In the specific context of ongoing settler colonial violence in Palestine, the crude, graphic and visceral representations of injuries and wounding are sometimes mobilized to make specific claims - namely a plea meant to demonstrate the humanity of Palestinians - and effect the realization of humanitarian and political projects. Such a politics of representation, in which wounds 'speak for themselves', can overlook how socio-cultural institutions and, indeed, power influence how the experience of acute suffering is articulated, communicated, and understood[14]. «Immediated» figurations of suffering, that occur 'in the moment', do not necessarily have more potential to convey an authentic truth and the representation «of damaged bodies as locus of proof and sentiment» often emerges as a process that continues to be ineffective (at best), or that detractors of the Palestinian struggle depict as a form of political machinery and cynicism (at worst)[15].

(12) The barracks are named after the French Marechal Joseph Joffre. For more information on early Palestinian exile to Lebanon, see: Jihane Sfeir, *L'exil Palestinien Au Liban: Le Temps Des Origines (1947-1952)* (Paris: Karthala, 2008).

(13) Susan Sontag, *Regarding the Pain of Others* (London: Penguin Books, 2019); Omar Dewachi, «When wounds travel.» *Medicine Anthropology Theory* 2, no. 3 (2015):61-82; Lamia Moghnieh, «Infrastructures of Suffering: Trauma, Sumud and the Politics of Violence and Aid in Lebanon». *Medicine Anthropology Theory* 8, no. 1 (2021): 1-26.

(14) William Mazzarella, «Internet X-ray: e-governance, transparency, and the politics of immediation in India.» *Public Culture* 18, no. 3 (2006): 473-505; Lori Allen, «Martyr Bodies in the Media: Human Rights, Aesthetics, and the Politics of Immediation in the Palestinian Intifada.» *American Ethnologist* 36, no. 1 (2009): 161-80

(15) Allen, «Martyr Bodies in the Media».

In the way she remembers her ordeal, Fatima emphasizes the process of wounding more so than she attempts to express her constant physical discomfort and her pain; and she describes her wounds by the weapons used to maim her. This association weapon-wound reveals how injuries aim at human obliteration: human bodies (like Fatima Sirhan's) are purposefully harmed using tools and technologies - and these are artifacts of collective human thinking and making - to contribute to the eradication of human creative forces(16). However, this association is also ambivalent: in the way that it brings Fatima's wounds into the public realm, it can work to create a compassionate connection with her pain or, on the contrary, provoke a disconcerting distance. In the same vein, the materiality of wounds, the physical and embodied traits of injuries, are also deflected through social manifestations of various trauma. Anthropologist Omar Dewachi tells the story of another refugee in contemporary Lebanon: Hussein, an Iraqi man who had been tortured and maimed in his home country and who had sought refuge in Beirut. Focusing on the interactions Hussein has in the leftist bar where he works as a waiter, Dewachi shows how entangled local and regional histories of conflict and violence corroborate, refute, or challenge the claim-making activities that are centered around wounds, revealing for example the limits of humanitarian logic and intervention. If Hussein's wounds are key to the processing of his claims to resettle in the United States, they are conversely a target of suspicion in Beirut, a milieu where political violence, and the bodies that bear its brunt, are legitimated or delegitimated by different social actors. Hussein was indeed fired from the bar after former militants, who had been maimed, imprisoned, and tortured themselves, became annoyed with him every time he showed them his scars(17).

Quotidian, social, and institutional frameworks thus concur to shape the meanings associated with public expressions of pain mediated through the materiality of wounds. But the embodied physical characteristics of wounds allow us to contemplate another set of equally complex relationships between the public display of suffering and the private feelings of having been harmed, on one hand, and between the social character of violence and

(16) Scarry, *The Body in Pain.*
(17) Dewachi, «When wounds travel».

the individual experience of pain, on the other. Could testimonies of wounds be attended to on these terms then? Fatima's account, as well as Umm Faris's which I engage later in this essay, seem to suggest that they can, and indeed must, be read in a different light, one that does not necessarily find its voice through the universalizing and homogenizing lens of violated human rights. Language objectifies personal pain and brings it into the world, though whatever wounding achieves, it also achieves through the un-shareability of pain, its resistance to language, and propensity to destroy it. Instead of words, sounds, and cries, and in lieu of a meaningful mode of expression that makes way with pain, it is a language that contributes to its world-shattering capacities(18). In Omar Amiralay's 1997 documentary *There are many things left to say*, playwright Saadallah Wannous, suffering from advanced throat cancer, struggles to articulate his pain. From his hospital bed in Damascus, he describes how the 1991 Gulf War was a blow so painful that he could only sense its effects in his throat - long before he was even diagnosed - and explains how he became increasingly aware of a foreign mass growing in his pharynx as American bombs fell on Iraq(19). Put differently, extreme pain eludes meaningful representation. In the process, it collapses and unmakes the world; but being in physical pain also brings one back to their own body, and it is precisely through this perpetual movement of return (to the body) that human imagination - transcending the embodied state which pain reduces oneself to - can strive to remake the world(20). A critical element is the relationship of bodily suffering to language and the world, and the connectedness of individual wounds to collective suffering(21). Fatima and Umm Faris's tenacious testimonies are thus another forceful manner by which to counter settler colonial violence and its aim to dissolve collective life through wounding.

(18) Scarry, *The Body in Pain*.

(19) Omar Amiralay, *There* Are Still So *Many Things Left to Say*, (Syria:1997), 49 min.

(20) Scarry, *The Body in Pain.*

(21) In *Illness as Metaphor*, Susan Sontag explores how metaphors are used to refer to illnesses such as cancer and contends that the cultural discourses surrounding these illnesses may have detrimental consequences. In this essay, I am less concerned with how diseases or injuries become metaphors. Rather, my framing here underscores the ways in which the expression of tremendous pain, almost linguistically impossible, involves the return of oneself to the body, and how an embodied expression of pain, such as one mediated through injuries, can transcend the world-shattering effect (individual and collective) that pain has created. See: Susan Sontag. *Illness As Metaphor*. (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1988).

«My leg still hurts very much», says Fatima as she takes her slippers off to show her scars in front of the camera. «See, what you have here», she asserts, pointing to a constellation of scars above and around her right ankle. Her skin, riddled with creases and wrinkles, looks like a crumpled blanket with a thousand tiny holes. «See, that's from surgery... and that's from another surgery, and here, you have another, and also here.». Holding the toes of her right foot in the cusp of her hand, she goes on: «here are my toes, I haven't felt, nor moved them in a very long time». She lifts her dress a little, and gesturing toward her left knee, shows two larger and longitudinal scars from other surgeries she had to have after the bombing. Fatima finally brings both her arms across her chest, and pointing at her armpits, declares: «I have nothing but shrapnel and metal inside of me». Though women reconstitute subjective feelings through their narratives, certain affects, desires, and longings find their expression in images, rather than through linguistic means: images that can «express without formulating», capturing «uncertainty and contradiction without having to resolve it» and that can «drag the world along with them»(22). Imagistic representations of wounds-aural, visual as in Fatima's case, or even textual-poetic-replace formal, linguistic explanations when the reality of the lived experience is too powerful, too painful and too great to express in ordered language. When descriptions of private pain are uttered linguistically, through publicly known grammar and rules, they will almost always stumble - the word 'pain' itself referring only to a sensation yet unable to describe it(23). In oral history interviews, the work of memory and recovering adds a personal subjective dimension to the collective history of the Palestinian Nakba(24). Processes of remembering through the body bring closer the concrete vividness of encounters with people, places and things. They are processes of subjectification, in and of themselves, through which women become «subjects and live their lives as a story within a history»(25). Because it is not aimed at producing a narrative structured

(22) Stevenson, *Life Beside Itself*, 10-11.

(23) Ludwig Wittgenstein, G. E. M Anscombe, P. M. S Hacker, and Joachim Schulte. *Philosophical Investigations*. Revised 4th edition. (West Sussex, U.K.: Wiley-Blackwell, 2009).

(24) Ruba Salih, «When Women Remember: Gender, Trauma and Counter-memories» In *Voices of the Nakba: A Living Archive of Palestine*, ed. Diana Allan (London: Pluto Press, 2021).

(25) Ruba Salih, «Bodies That Walk, Bodies That Talk, Bodies That Love: Palestinian Women Refugees, Affectivity, and the Politics of the Ordinary» *Antipode* 49, no. 3 (2017): 747.

around proof, symptomatologic or medical discourses, Fatima's testimony stands in stark contrast with the authorizing predispositions that wounds can assume(26). The way her story unfolds is political, though it does not attempt to draw immediate links with a well-ordered and coherent political plot like a revolution, an anti-colonial struggle, or a nationalist project. When the interviewers prompt her to provide dates or to name specific political actors, she replies with «I don't know», «I don't recall», «I am not sure who they were, just armed men». Nevertheless, she draws another horizon for politics, one that is grounded in her propensity to attend to the things, people, and places that matter. She remembers in explicit details the journey of the ambulance that transported her from al-Jish to the Joffre Hospital in Beirut, as well as all the stops it made along the way. Grateful for the people she loved and who loved her back, Fatima also displays a commitment to a politics that is also grounded in female solidarity. She recalls the names of two women friends who were injured during the barrel bomb strike and who survived: Neda and Najiyyeh, who moved to Aleppo and Hama. An older woman when she is interviewed, Fatima conjures her younger self. The scars from her injuries, that she displays in front of the camera, are signs that construct and help construe our understanding of time(27). They are literal, visceral and temporal configurations that point both backward and forward, bringing under sharper focus the processes and transformations through which settler colonial violence seeks to eliminate and mutilate native bodies. From the moment Fatima's adolescent body was wounded, her life was irreversibly altered. As her young body grew - and female bodies bear a metonymic relation to life, social reproduction, and care - it continued to carry the imprint of the 1948 war.

Similarly, listening to Umm Faris's audio-record makes clear her desires to address her personal pain instead of mere 'political sufferings'. When Rosemary Sayigh interviews her in 1998, part of the Palestinian Voice Archive project, Umm Faris had relocated to the new, low-rent, residential district of Sheikh Radwan in Gaza city from the nearby al-Shati' refugee

(26) For e.g.: wound narratives mobilized to effect certain humanitarian claims, or the medical language used to describe wounds and lacerations.

(27) Scarry, *The Body in Pain.*

camp that the Israeli army had bombed to the ground[28]. In the conversation she has with Sayigh, she highlights the terrific scars on her body and evokes the past as the site of an original wound - physical, personal, and historical - that shapes her present and the possible trajectories of the future she imagines for herself[29]. «I want to talk about my own personal sufferings, is it ok?», she asks. She recalls her marriage, when she was a young adolescent, to a resistance fighter (and high-ranked member of Fatah) in 1978 in Baghdad and stresses her subsequent peripatetic, difficult, and very lonely travels to a multitude of places and cities - from Damascus to Geneva. Umm Faris' momentary encounter with Sayigh, though embedded in a long and familiar history of violence, is also suspended in a political time during which the Israeli military had begun the progressive transfer of control of the Gaza Strip to the Palestinian Authority (P.A.), in addition to the concomitant construction of the barrier which helped transform the strip into the world's largest, open-air, prison. As Sayigh describes, a friend she had in common with Umm Faris had suggested she meets with her because of the singularity of her experience: Umm Faris who had been working with UNRWA as a social worker had returned to Gaza - her birthplace - following several years as an exile from Lebanon, a context that had always been particularly violent for Palestinians. Beyond her wounds, Umm Faris's testimony historicizes gender relations, sexual and reproductive health, sociopolitical dynamics, and the contested meanings of home from the perspective of a woman who was made a refugee and whose body was maimed when she was a young adolescent mother.

In Gaza, Umm Faris lived in a home she had progressively built herself with the help of her neighbours and her two sons on a small plot of land she obtained through a grant from the Palestinian Ministry of Social Affairs. In her interview, she thoroughly describes how she had borne her two children (Youssef, born 1979 at Baghdad Medical City; and Mohammad, born 1981

(28) Sayigh began this archive in the early 1970s. The interviews she conducted in Gaza at a later stage were audio-recorded then published in the digital book *Voices: Palestinian Women narrate displacement*, accessible online at the al-Mashriq digital archival database.

(29) I develop how Umm Faris' oral history interview makes way for a different form of engagement with the archival record of the Palestinian Nakba in an upcoming volume dedicated to the Nakba Archive collection. For more information, see Diana Allan Ed., *Voices of the Nakba*: *A living Archive of Palestine* (London, UK: Pluto Press, 2021).

at al-Shifa hospital in Gaza - both delivered by cesarean section) and recalls how, physically worn out and exhausted from displacement and illness, she had become a young widow when, in 1991, the Majlis al-Thawri (the revolutionary council) of the Abu Nidal Organization had assassinated her husband, forcing her away from the city of Saida, first to Badawi Camp in north Lebanon, then back to her native Gaza, via Amman, with her two sons. Umm Faris was raising her children alone; she had little contact with her husband's family (he was from another part of Palestine) and her ties with her own Gazan family were not solid either. The life-threatening complications she developed after giving birth to her second son Mohammad at al-Shifa hospital in Gaza had provoked many of her travels. During her cesarean section, «cotton and gauze were left inside [her] belly» causing «[her] guts and [her] intestines to decay». «*mʿafneen*», she says(30). Back in Baghdad, and suffering from excruciating pain, she underwent a series of surgical interventions where doctors «cleaned and removed everything and tied all [her] intestines and put them back inside [her]». Unfortunately, these multiple surgeries caused her to develop further complications: several intestinal occlusions and a hernia through which the food she ate would repeatedly «burst out of [her] abdomen, through the skin». Weighing a mere 35 kg by then, she would be urgently transferred to Switzerland, thanks to her husband's connections and with the support of Fatah. In Geneva, an American surgeon would perform multiple operations on her body, installing a colostomy bag, before removing it and re-attaching her colon to her rectum.

Umm Faris' body registered her physical sufferings from the complicated childbirth, as well as her experience with displacement across the different countries of the region. Some facets of her life can be linked to broader sociopolitical and historical conjunctures. She had momentarily settled in Iraq with her husband who had been stationed there as a senior member of Fatah. Their living situation had turned quite arduous as Iraq waged war with Iran (1980-1988) and Palestinian-Iraqi relationships subsequently deteriorated. «I was sick and alone in Baghdad with no one to take care of me or ask about me, or my children. I only had my husband and he only had me», she told Sayigh. Both al-Shifa' hospital and the Baghdad Medical

(30) Rotten and to be discarded.

City had been built by the British during the period of the Mandate and had subsequently been transformed over time, responding to, and shaped by, war, occupation, and besiegement. The staff at Baghdad Medical city, already working under hardship and duress because of the Iran-Iraq War, were unable to provide Umm Faris with proper care. With armed conflicts prevalent in the region, healthcare professionals are forced to repeatedly deal with mass casualties and work with little resources and under tremendous levels of stress. They do not manage, however, to retain and institutionalize the knowledge and practices they produce and develop. Every time a renewed episode of violence erupts, doctors, nurses and hospital personnel must relearn everything(31).

If genocidal violence is one logic through which to characterize the ongoing process of the Nakba, then maiming, where force and power aim to harm just short of killing, is another(32). The «right to maim», a form of violence that emerges from a conjunctural relationship between ethnicity, political economy, and history, contributes to the creation of infrastructures that provoke a 'slow death', a state in which people exist only in as much as they constitute a source of value that can be extracted(33). Umm Faris's illness, as a form of injury that arises from overdetermined configurations of structural exclusion and violence, disallows death, yet enables the production and reproduction of unlivable conditions of life, work, and love(34). Despite it all, Sayigh asserts that the Umm Faris she met was a woman who has had to rely entirely on herself to survive but who had also managed to build strong kinship ties with neighbors, friends and benevolent members of the community who supported her along the way. After her husband disappeared in Saida, friends helped forge identification papers for her and her two sons to allow them to return to Gaza. In the district of Sheikh Radwan, neighbors also often dropped by her house to check on her and make sure she always had everything she needed. Conversely, Sayigh contends that Umm Faris,

(31) Ghassan Abu Sittah, Omar Dewachi and Nabil Al-Tikriti, «The Evolution of Conflict Medicine in the Middle East-An Interview with Ghassan Abu Sittah,» *Middle East Report* no. 297 (Winter 2020).

(32) Jasbir Puar, *The Right to Maim: Debility, Capacity, Disability*. (Durham: Duke University Press, 2017).

(33) Ibid.

(34) João Biehl, *Vita: Life in a Zone of Social Abandonment*. (Berkeley: University of California Press, 2013); Puar, *The Right to Maim*.

though back in her native town, in a home she owned, still felt unsafe as she told Sayigh that she did not want her real name revealed, feared repercussions in her workplace because of any information she might disclose in the interview, and worried about the future of her sons(35).

By way of an intimate ethnographic engagement with women who suffered from various illnesses in the south of Italy, anthropologist Mariella Pandolfi shows how the bodies of women are both a historical and a phenomenological memoir through which distress can be interpreted(36). Describing oneself through one's own body confirms a particular sense of being present in the world, a presence also configurated by social and historical structures that produce specific cultural roles and forms. Regardless of how these cultural expectations sought to discipline female expressions, feelings and behaviors, they still refracted a world in which women strived to face uncertainty and alienation. Pandolfi writes about the case of Maria, a peasant woman who regularly visited a doctor (instead of the traditional healers as is the custom in her village) to obtain medicine to alleviate her pains from living in a rapidly changing world. Though Maria resorted to a professional healthcare practitioner, she spoke of her suffering not as illnesses but in terms of the sick parts of her body, a discourse characteristic of the historical peasant customs of her village(37). Likewise, in the audio-recording, Umm Faris does not hesitate to make explicit and felt for her listeners all the manners with which she's dealt with her own world. Right as she is recounting all the surgeries she had, Umm Faris interrupts the conversation with Sayigh to ask her if she would get close to see her abdomen. Listening to that segment of the audio-recording, we intuit that Umm Faris had lifted her clothes to reveal her scars. Sayigh's response is one of surprise, but also illumination: «this scar goes straight into your heart», she tells Umm

(35) Rosemary Sayigh, *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement*, (Beirut: Al Mashriq site, 2005). https://lib-webarchive.aub.edu.lb/BorreLudvigsen/http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/index2.html

(36) Drawing from the works of Croce, De Martino and Gramsci, Pandolfi attempts to reconcile two philosophical traditions which have dominated the study of Italian southern societies: historicism and phenomenology. Mariella Pandolfi, «Boundaries Inside the Body: Women's Sufferings in Southern Peasant Italy.» *Culture, Medicine and Psychiatry: An International Journal of Comparative Cross-Cultural Research* 14, no. 2 (1990): 255-73.

(37) Pandolfi, «Boundaries Inside the Body».

Faris, revealing how the material, the physical, the psychosocial and the political cannot be disentangled. Umm Faris's embodied pain had thus linearly erupted into public domain. Her embodied performance, as she lifts her dress and shows her scars, invited a deeply intimate, perhaps even uncomfortable, engagement with her suffering. Her voice, asking Sayigh to come closer, followed by Sayigh's comment, had enabled her to project her embodied experience in both space and time and similarly extend the expanse of her wounds, beyond the physical confines of her body, to other spaces and moments that define collective life.

In her literary, vivid, and often quite graphic discussion of torture, Elaine Scarry shows that the greater the pain inflicted by the torturer, the smaller the wounded's world become(38). And as the wounded's world continues to shrink, the larger the wounder's world becomes and the stronger their power. What does it mean then to speak on behalf of those who have been wounded or those who are in pain? In their social dimensions, wounds are the «interstitial tissues» that bring people together or further drifts them apart, through a competing wound economy - a property that can underscore the contingent character of the values attributed to suffering(39). If wounds are indeed this connecting tissue through which relations are made and unmade, then tending to women's testimonies in the Palestinian oral history archive is very much like looking at the photograph of a person we love and lost. It is a wounding encounter that «fills the sight by force, because in it nothing can be refused or transformed»(40). From this encounter emerges the full ambivalent character of a testimony of wounds that holds the marks of both the perpetrator (what they did) and the survivor (how they were maimed). Even if a testimony exceeds its own representation («it fills the sight by force»), it remains a practice that develops because of cultures of witnessing that encompass promises of redemption (for the perpetrators) or redress and restorative justice (for the survivors). Besides, these cultures of

(38) Scarry, *The Body in Pain*.
(39) Dewachi, «When wounds travel»; Moghnieh, «Infrastructures of Suffering».
(40) Roland Barthes, Trans. Geoff Dyer. *Camera Lucida: Reflections on Photography* (New York: Hill and Wang, 2010), 91.

witnessing can sometimes be complicit in historical violence(41). For instance, in the case of the Mohawk nation, the consolidation of salvage ethnography, known today as the anthropological recording of social practices and cultures threatened with extinction, corresponded with the incremental continuation and transformation of settler colonial violence(42). In other contexts, and through ritualized patterns, colonizers also sought healing from the very same people which had been the targets of prior forms of colonial violence(43). «Europe is doomed», wrote Sartre in his preface to *The Wretched of the Earth*, «our victims know us by their wounds and shackles: that is what makes their testimony irrefutable», he added(44). Irrefutable to whom, and why, we might cynically ask.

Medical descriptions and diagnoses, reports of international organizations like Amnesty or Médecins Sans Frontières, transcripts of human rights trials, and artists' poems and prose bring pain into the public realm and represent, through language, different types of wounds and injuries on behalf of those who were wounded(45). Because they are composites of words, images, and embodied, aural, visual, and linguistic insignia, Palestinian women's oral history accounts prompt another kind of ethnographic engagement with wound narratives, where the intimate experience of sharing one's scars becomes the basis for relation, and for a way of knowing violence and remaking the subject in the wake of violent injury. If this essay engages the Palestinian oral history archive to explore how, and if, pain's world-shattering capacities can be undone, it is likewise inevitably haunted by the recent heightened episode of ethnic cleansing in Palestine, the unrelenting Israeli bombing of Gaza, and the subsequent deaths and injuries that this violence continues to produce. Over the past two months, like millions of people across the planet, I read stories of grief, death and loss and I

(41) Allen, Feldman. «Memory Theatres, Virtual Witnessing, and the Trauma Aesthetic» *Biography* 27, no. 1 (2004): 163-202.

(42) Audra Simpson, *Mohawk Interruptus: Political Life Across the Borders of Settler States* (Durham: Duke University Press, 2014)

(43) Michael, Taussig, *Shamanism, Colonialism, and the Wild Man: A Study in Terror and Healing* (Chicago: University of Chicago Press, 1987).

(44) Jean-Paul Sartre, Preface to *The Wretched of the Earth* by Frantz Fanon (New York: Grove Press, 2004), 48.

(45) Scarry, *The Body in Pain*.

scrolled endlessly through my social media timeline glaring at moving and still images of decimated and wounded bodies of Palestinians, young and old. Much like what happened to Fatima Sirhan and Umm Faris, children and young adolescents who were injured will likely suffer from various forms of lifelong disabilities and will require repeat surgeries as their bodies continue to grow. In the words of Ghassan Abu-Sitta, a Palestinian surgeon who's been treating and operating on the wounded since the First Intifada: «What if re-injury in future wars is a probability? […] This is the future that awaits kids in Gaza»(46).

Drawing on the narrative, embodied and imagistic forms through which Umm Faris and Fatima Sirhan have represented their experiences with injuries, this essay has attempted to outline what wounds might look like, unravel, or conceal in the oral history record. As «wounds travel» in space and time, they invite a rethinking of historiographic and anthropological practices, and question how subjects attempt, or not, to dislodge their suffering, express it, or become invested in various political projects(47). In a context marred by conflicts and wars, wound testimonies exist because of the difficulties of articulating terror, and pain through speech. If violence is overbearing to the point of becoming almost uneventful, and in all cases inseparable from the lived experience of everyday life, can and must it be squarely named?(48) And how? The political impasse lies here: it is directly proportional to our incapacity to formulate the pain of living in a present while simultaneously imagining a future already foreclosed. Engaging the accounts of Umm Faris and Fatima Sirhan means both «living-in-violence» and experiencing it in the form of an encounter(49). In the Palestinian oral history archive, the testimonies of wounds do several things at once: they do not rescind the violence, nor do they explicitly name it; and yet, they transcend it. Through their interviews, these women's accounts resist normative testimonial modes of naming violence while also articulating an alternative subjectivity through

(46) Ghassan Abu-Sitta, Twitter Post, May 26, 2021. https://twitter.com/GhassanAbuSitt1/status/1397477624604237824?s=20

(47) Dewachi, «When wounds travel».

(48) Lamia Moghnieh, «'The violence we live in': reading and experiencing violence in the field.» *Contemporary Levant* 2, no. 1 (2017): 24-36; Sami Hermez, *War Is Coming: Between Past and Future Violence in Lebanon* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2017).

(49) Moghnieh, «The violence we live in».

their pain - one that actively resists assimilation or dissolution; and one in which the struggle to remake and reinvent the world is both inevitable and constant. This tension, and movement, between the individual and the social, the private and the public, the unuttered and the inaudible, and the forms of subjectivities forged through pain, recreates in each instance the collective life that dominant socio-political orders seek to obliterate.

Primary Sources:

Interview with «'Umm Faris», Sheikh Radwan, Gaza City, April 12, 1998. Rosemary Sayigh, The Palestinian Voice Archive, published in *Voices: Palestinian Women Narrate Displacement* (Al Mashriq, 2007), last accessed February 1, 2021.

http://almashriq.hiof.no/palestine/300/301/voices/Gaza/halima_hassouna.html.

Interview with Fatimah Sirhan, Lebanon, September 29, 2003. The Nakba Archive Collective, part of the Palestinian Oral History Archive at the American University of Beirut, last accessed March 24, 2021.https://n2t.net/ark:/86073/b35p7h